

عتبات الشوق

من مشاهدات الرحالين المغاربة في الإسكندرية والقاهرة



عنوان الكتاب : عتبات الشوق : من مشاهدات الراحلين المغاربة في الإسكندرية و القاهرة
إعداد و تقديم : شعيب حليفي
الناشر : وزارة الثقافة
الطبعة : 2013
الإيداع القانوني : 2013MO 0996
ردمك :0- 78 -581 - 9954 - 978
الإخراج الفني : نداكوم ، هـ : 50 25 68 37 05 - الرباط
المطبعة : مطبعة البيضاوي هـ : 41 32 70 37 05 - الرباط



محمد أمين الصبيحي
وزير الثقافة

في سياق استكشاف واستنطاق النصوص الغزيرة التي يحفل بها متن أدب الرحلة بالمغرب ، وإسهاما في إلقاء الضوء على مختلف الجوانب الإثنوغرافية والجغرافية والثقافية والحضارية التي تزخر بها كثير من النصوص ، يسعد وزارة الثقافة أن تنشر هذا الكتاب التجميعي لعدد من المشاهدات الأساسية للرحالين المغاربة في الإسكندرية والقاهرة ، وهي المشاهدات التي جمعها وقدم لها الكاتب و الباحث المغربي شعيب حليفي .

وما يميز هذا الكتاب ، في المقام الأول ، هو تنوع الرحالين المغاربة المدلين بشهاداتهم العينية عن مصر ، وتنوع المدارس الأسلوبية والمرجعية التي أطرت مشاهداتهم في أرض الكنانة التي ظلت زمنا طويلا بمثابة اسم آخر للقاهرة و الإسكندرية مثلما ظلت مراكش وفاس ، لفترة طويلة ، بمثابة كنايتين عن المغرب. وفضلا عن هذا التنوع المرجعي للمشاهدات ، وتباين تشعبها وكثافتها من رحالة لآخر ، نجد أسماء أصحابها موزعة زمنيا على حوالي تسعة قرون ، أي منذ وصول ابن جبير إلى الإسكندرية في مارس 1183 إلى رحلة الحجوي سنة 1956 ، وهو ما يؤكد تواتر الرحلات الكبرى من المغرب إلى مصر على مر القرون ، واستمرارية الجاذبية الفكرية والوجدانية التي ظل هذا البلد الشقيق يمارسها على المخيال الثقافي المغربي منذئذ وإلى اليوم ، حتى إن مصر تحولت على طول الحقب الماضية ، إلى موطن ثان استقر به حتى الوفاة كثير من الأعلام المغاربة الذين وشموا الذاكرة المكانية للقاهرة والإسكندرية بأسمائهم.



على أن مضامين هذه المشاهدات الحية والمتفاعلة هي التي ندعو القارئ إلى التوقف عندها لما تشير إليه من شغف صادق لم يكن بعد المسافة ومشقة السفر يثنيان أصحابه من هؤلاء الرحالين عن التنقل وركوب أخطار الطريق في سبيل إغناء الفكر وإمتاع العين وإسعاد الوجدان. كما تكشف هذه المضامين ذلك التبادل الثقافي المبكر بين المغرب ومصر في نوع من الدبلوماسية التلقائية التي كان دافع كثير منها الاستزادة من علم المشرق والجمع بين الحج الثقافي والحج الديني في بلاد الحجاز، والعودة بنفائس المخطوطات وكنوز المشاهدات.

لذلك، يعتبر هذا الكتاب إضافة نوعية إلى الأبحاث و الدراسات التي حفلت بها ندوة الرحالة العرب و المسلمين التي سبق أن احتضنها الرباط على مرحلتين بتنظيم تشاركي بين وزارة الثقافة و مركز ارتياد الآفاق و مجلس الجالية المغربية بالخارج، مثلما هو تأشير على استمرارية الكشف عما لا يزال في كثير من المخطوطات و المصادر من مشاهدات و تقييدات ثمينة في هذا الباب.

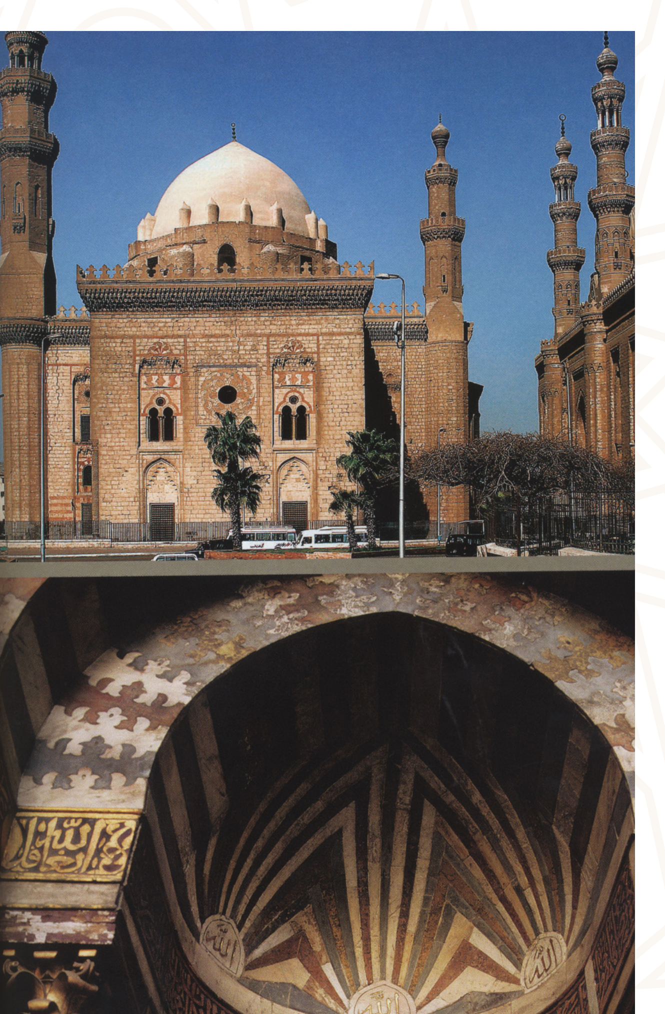
العبور إلى الروح

شعيب حليفي

على مدى قرون طويلة ، كانوا مثل سُحُب وابلة تأتي في مواقيتها من أقصى نقطة في الغرب المُحاذي للبحر الأطلسي المترامي في المجهول . قبل مجيئ الإسلام، ارتحل المغاربة الأمازيغ فرادى وجماعات في علاقات ما زالت آثارها مع المصريين وتقوّت بآصرة العلم والدين مع وصول الإسلام الذي حقق ما كان مُفتقدا . فكان الفقهاء والعلماء يشدُّون الرِّحال إلى مصر قلب الشرق العربي، طلبا للعلم والاختلاط بالعلماء لسنوات قبل العودة إلى مراكش وفاس ، أو البقاء الأبدي هناك وهي سُنة جرت على مرِّ القرون ، خصوصا مع تنظيم الحج المغربي إلى الحجاز ومروره على محطة استراتيجية هي مصر .

مبادرة فقيه مغربي في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي من مدينة آسفي ، اسمه محمد أبو صالح ، كانت بداية تنظيم الرحلة عبر مصر في ركب نبوي ، ومن خلال نقط وزوايا معمورة لضمان أمن وسلام الحجيج المغربي من المغرب إلى مصر ، في أكثر من إسم لهذا الركب : الصالحي ، السجلماسي ، الفاسي ، المراكشي ،الشنقيطي ، أو أؤلائك الذين اختاروا الرحلة من الاندلس. وكلها رحلات هدفها الظاهر أداء شعيرة الحج ، غير أن الرحالة غالبا ما يجد في السفر فرصة للإبداع والإكتشاف فيتحول إلى أداء شعيرة أخرى في عبوره الذي لا يخلو من حكايات وعِبَر، خصوصا في مصر ، بالإسكندرية والقاهرة ، باعتبارها محطة متعددة المنافع تختزن من المفاجآت ما يُليِّنُ النفس .. حيث يسجل المؤرخون والرحالة والشعراء استكمال الإحتفالات بعد التقاء الركب المغربي والمحمل المصري واستعدادهما للخروج في رحلة مقدسة نحو الحجاز ؛ فأبدع شعراء الملحون نوعا مخصوصا لهذا الحدث أسموه « المرحول « ، ومنه يقول الحا ج عمر المراكشي :

يَا رَبِّي بِكْ لِيكْ كَمَّلْ بَالْخِيرْ اعْلِيَّ
مَكَّة نَنْظَرْهَا ايْزُولْ كَرْبِـــي
اللاَّيَمْ لاَ تْلُومْنِي كُفّ اللُّومْ اعْلِـيّ
نَتْهَى اللاّيَمْ لاَ اتْزِيـدْ عَجْبِي
مَا نَكْوِيتِي وْلاَ انْظَرْتِي فَرْجَاتْ زْهِيَّة



افْمَصْرْ تَمَّ زَالْ كَرْبِــي
يَوْمْ الْمَحْمَلْ ايدُوزْ لاَبَسْ كَسْوَة عَكْرِيَة
حُسْنْ ابْهَاهْ مَنْ ابْعِيدْ يَسْبِــي
بَحْلِي وَحْلَلْ وُلَتْفَاتْ وَجْوَامَرْ ذَهْبِيَة
عَنْ ذَا مَا صَالْ بِهْ عَرْبِــي
مُوبَّرْ لَكْتَافْ قَصّتُو تَبْاكَنّ اثْرِيَّــة
وَمْجَادَلْ لَحْرِيرْ فَاشْ امْغَبِّــي

ولا عجب ان تكون عائلات مصرية من أصول فاسية ومراكشية وطنجية ، وأحياء ومساجد وأوقاف مغربية مخصصة للزوايا كما سيذكر أبو سالم العياشي ذاك وهو بالإسكندرية ، معتبرا زاوية محمد أبو صالح ،هناك، واحدة من المزارات التي يقيم بها المغاربة أثناء عبورهم .

وخلال عشرة قرون ، منذ وصول ابن جبير إلى الإسكندرية يوم 26 مارس 1183 وتدوينه لمشاهداته ،لم يخلُ قرن من القرون السابقة من كتابات مغربية عن مصر باسكندريتها وقاهرتها ، بأشكال مختلفة تُعبّر في محصلتها عن الشغف بمصر ، وهو ما سيؤكده العياشي في شهادة بليغة على لسان ابن خلدون.

يقول أبو سالم العياشي : "وقد ذكر ابن خلدون في كتابه: كتاب منتهى العبر إن بعض ملوك المغرب سأل بعض العلماء ممن حج عن مصر فقال له: أقول لك فيها قولا واختصر، من المعلوم إن دائرة الخيال أوسع من دائرة الحس، فغالب ما يتخيله الإنسان قبل رؤيته إذا رآه وجده دون ما يتخيله ومصر بخلاف ذلك؛ كل ما تخيلته فيها، فإذا دخلتها وجدتها أكثر من ذلك".

مؤرخون وعلماء من أمثال ابن سعيد المغربي والقاضي عياض وابن خلدون والزياني وغيرهم من الفقهاء والرحالة ممن سجلوا مُشاهداتهم في ما لامسَ وجدانهم وعقلهم في تجارب حياتية فريدة، عبروا إليها برّا أو بحرا ، فجاءات كتاباتهم برؤيتين متقاطعتين :

- سياحية في معالم الإسكندرية بمنارها ومرساها وباقي عمرانها ؛ وفي القاهرة بحر النيل والجامع الأزهر والأهرامات والمساجد والخوانق والزوايا والمدارس والسلاطين والطوائف والحياة العامة .

- ثقافية وعلمية من خلال اللقاء بالعلماء والفقهاء والمشايخ وزيارتهم والأخذ بإجازاتهم ومحاورتهم والمشاركة في المناظرة والدروس والقضاء ، واقتناء الكتب ونسخ النفائس منها ، وزيارة الأولياء والمزارات .

وقد حفلت كتابات كل الذين زاروا مصر بأوصاف وتقييدات تنوعت ، منذ أولى الرحلات لأبي بكر بن العربي المُعافري " ترتيب الرحلة للترغيب في الملة " وقد دامت عشر سنوات (1092م- 1102م) دخل فيها الإسكندرية سنة 1099 م بعدما كان قد زار القاهرة ، قبل سبع سنوات من هذا التاريخ، وهو يافع رفقة والده. وبالإسكندرية التقى بالعلماء وعلى رأسهم أبو بكر الطرطوشي، كما تولى التدريس بمحرس ابن الشواء. رحلة ضاعت في حياة صاحبها فقيّد ملخصا عنها مما علق بذاكرته في كتابه قانون التأويل .

أما ابن رشيد السبتي صاحب الرحلة المسماة " ملء العيبة بما جُمعَ بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة مكة وطيبة " فسيملأ أسفارا ضاع ما ضاع منها بأخبار وتراجم العلماء في الإسكندرية والقاهرة حوالي سنة 1286 م ؛ وكذلك أبو القاسم التجيبي الذي كتب "مستفاد الرحلة والإغتراب" بوصفها رحلة للبحث عن العلماء ، فجاء مؤلفه – بما بقي منه - برنامجا كاملا لتراجم وفهارس علماء الإسكندرية التي حلّ بها يوم الإثنين رابع فبراير 1297؛ ثم انتقاله إلى القاهرة لاستكمال لقائه بالعلماء وضمِّ أسمائهم إلى برنامجه ، وذلك يوم الثلاثاء خامس مارس من نفس السنة .أما السراج القيسي الملقب

بابن المليح ، صاحب رحلة "أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب وسيد الأعاجم والأعارب" والذي رحل من المغرب سنة 1631 م قاطعا المسافة من مراكش إلى مصر في سبعة أشهر ، لن يختلف عمن سبقه أو من سياتي بعده .

مؤرخون ورحالون جاءت مُشاهداتهم وأوصافهم مراجع أساسية للكتابة والتخيل والمقارنة ، انطلاقا مما يُولده ذلك الانبهار والشغف بالحياة والمجتمع والحضارة المصرية ومعالمها الروحية والتاريخية ... مما حقق صفحة للتثاقف والتفاعل والحوار في أبهى صورها الخلاّقة ، بين ثقافتين أو أكثر ، مغربية وأندلسية ومشرقية .



النصوص التي يتضمنها هذا الكتاب ، هي مختارات تمثيلية ، ومقتطفات بتصرف ، من مؤلفات زار مؤلفوها مصر في حج ثقافي عبروا من خلاله إلى مكة والمدينة للحج الديني . نصوص تتوقف طويلا عند مصر الإسكندرية والقاهرة لترسَمَ صورا لرؤى وأفكار عن الأمكنة وهي مُحملة بأزمانها الحاضرة والماضية ، وبشخصياتها من علماء وفقهاء وساسة ومواطنين بسطاء من المجتمع .

اثنى عشر رحلة تُغطي مرحلة حوالي عشرة قرون ، منذ القرن الثاني عشر الميلادي وإلى غاية القرن العشرين ، تنوب عن القرون السابقة التي ضاعت منا نصوصها أو غلبت معانيها الرحالين في أسفارهم العنيفة فلم يكتبوها ؛ كما تنوب عن ملايين الحجاج والسياح الزائرين لمدينتي الإسكندرية والقاهرة عبر كل القرون السالفة ، ومنذ نهاية القرن السابع الميلادي .

والقارئ لهذه النصوص ، مفردة أو في سياقها النصي، سيصادف أنها نص واحد ، فؤاده واحد بألسنة عدة، فيه من الجَمال ما يجعله شعورا شفّافا وأدبا رقيقا وتاريخا للثقافي وسجلا للتاريخي والجغرافي والإثنوغرافي . .إنها تمثيلات فيها من الصدق والعفوية بروح الإعجاب والنقد وحس التثاقف. إنها التاريخ الفعلي للصِّلات الوطيدة ، على مر التاريخ ، بين المغرب في أقصى الغرب الإسلامي ومصر التي تشكلت صورة مشرقة وجسرا للعبور إلى الروح والذات .

✦ ابن سعيد المغربي : النجوم الزهراء في حلى مصر و القاهرة (جزء من كتاب «المغرب في حلى المغرب»)، تحقيق حسين نصار، دار الكتاب، القاهرة، 1970 .

✦ أبو القاسم الزياني (1734 - 1833) : الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً . [تحقيق : عبد الكريم الفيلالي] المغرب ، ط.2 - دار نشر المعرفة - الرباط . ط.2- 1991.

✦ ابن رشيد السبتي (المتوفي سنة 1321م) : ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة و طيبة، ج3، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الشركة التونسية للتوزيع والنشر، تونس، بدون تاريخ.

✦ جلال الدين السيوطي(1083 م - 1149م) : حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. [تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم] القاهرة . دار إحياء الكتب العربية . مصر . ج1- 1967؛ ج2- 1968.

✦ عبد العزيز بن عبد الله : الرحلات من المغرب و إليه عبر التاريخ، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ط1، 2001.

✦ عبد الهادي التازي : رحلة الرحلات ، مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة (في جزأين). الرياض ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي . ط1- 2005.

✦ القاسم بن يوسف التجيبي : مستفاد الرحلة و الاغتراب، [تحقيق عبد الحفيظ منصور]، ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب، 1975.

✦سعيد أعراب : مع القاضي إبي بكر بن العربي. بيروت، دار الغرب الإسلامي . لبنان. ط1- 1987

كرونولوجيا

- ✦ ابن جبير (ولد 1145م رحل 1183 م توفي 1217)
- ✦ العبدري (ولد 1248م- رحل1289م- توفي 1341م)
- ✦ ابن بطوطة (ولد1304م- رحل1325م- توفي1377م)
- ✦ البلوي (ولد1314م- رحل1337م- توفي1379م)
- ✦ ابن خلدون (ولد1332م- رحل1382م- توفي 1406م)
- ✦ القلصادي (ولد1422م- رحل1437م-توفي 1487م)
- ✦ أبو سالم العياشي (ولد 1628م- رحل1661- توفي1679م)
- ✦ الغنامي (ولد ــــ رحل1729م توفي ــــ)
- ✦ الحضيكي (ولد 1706م- رحل 1740م- توفي1775م)
- ✦ ماء العينين (ولد1831م- رحل1858م توفي1910م)
- ✦ الغسال(ولد 1866م- رحل1898م- توفي1939م)
- ✦ الكتاني (ولد 1858- رحل 1903- توفي 1927)
- ✦ مؤلف مجهول زار القاهرة (1-6مارس 1934)
- ✦ الحجوي (ولد 1874-رحل1949 توفي 1956)

ابن جبير
(1217-1145)

غادر ابن جبير غرناطة بنية الحج يوم الخميس 3فبراير 1183 على سفينة إيطالية ليصل الإسكندرية بعد ثلاثين يوما (26 مارس 1183) .وسيرحل نحو القاهرة في الثاني من أبريل من نفس السنة. عاد ابن جبير إلى غرناطة سنة 1186م.

نزولنا بالإسكندرية

فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أنْ طلعَ أمناء المركب من قِبَل السلطان بها لتقييد جميع ما جُلب فيه. فاستُحضرِ جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً وكُتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، وسُئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يُبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يَحُل. وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم، فلُزموا أداء زكاة ذلك دون أن يُسأل أحال عليه الحول أم لا. واستُنزل أحمد بن حسان منا ليُسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب. فطيف به مُرَقباً على السلطان أولا ، ثم على القاضي، ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان .وفي كل يُستفهَم ثم يُقيَّدُ قوله. فخُليَ سبيله، وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم، وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم وبحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان. فاستُدعوا واحداً واحدا وأحضرِ ما لكل واحد من الأسباب، والديوان قد غص بالزحام . فوقع التفتيش لجميع الأسباب، ما دقّ منها وما جَل، واختلط بعضها ببعض، أدخِلت الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها. ثم استُحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا.

وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وتكاثر الزحام، ثم أطلِقوا بعد موقف من الذل والخزي عظيم، نسأل الله أن يعظم الأجر بذلك. وهذه لا محالة من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين، ولوعَلِم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق لأزال ذلك، وكفى الله المؤمنين تلك الخطة الشاقة واستؤدوا الزكاة على أجمل الوجوه. وما لقينا ببلاد هذا الرجل ما يلم به قبيح لبعض الذكر سوى هذه الأحدوثة التي هي من نتائج عمال الدواوين





ذكر بعض أخبار الإسكندرية وآثارها

فأول ذلك حُسن وضع البلد واتساع مبانيه، حتى إنا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه، وأسواقه في نهاية من الاحتفال أيضاً. ومن العجب في وصفه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن، لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض فتتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضاً.

وعاينا فيها أيضاً من سواري الرخام وألواحه كثرة وعلواً واتساعاً وحسناً ما لا يتخيل بالوهم، حتى إنك تلفي في بعض الممرات بها سواري يغص الجو بها صعوداً لا يدرى ما معناه ولا لِمَ كان أصل وضعها. وذُكر لنا أنه كان عليها في القديم مَبان للفلاسفة خاصة ولأَهل الرئاسة في ذلك الزمان، والله أعلم، ويشبه أن يكون ذلك للرصد.

منار الإسكندرية

ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها ،المنار الذي قد وضعه الله عز وجل على يدي من سخر لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى بر

ذَرَعنا أحد جوانبه الأربعة فألفينا فيه نيفاً وخمسين باعاً ،ويذكر أن في طوله أزيد من مئة وخمسين قامة. وأما داخله فمرأى هائل، اتساع معارج ومداخل وكثرة مساكن، حتى إن المتصرف فيها والوالج في مسالكها ربما ضل. وبالجملة لا يحصلها القول، والله لا يُخليه من دعوة الإسلام ويبقيه.

الإسكندرية، يظهر على أزيد من سبعين ميلاً. ومبناه في غاية العتاقة والوثاقة طولاً وعرضاً، يزاحم الجو سمواً وارتفاعاً، يقصر عنه الوصف وينحسر دونه الطرف، الخبر عنه يضيق والمشاهدة له تتسع.

وفي أعلاه مسجد موصوف بالبركة يتبرك الناس بالصلاة فيه، وطلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذي الحجة المؤرخ، وصلينا في المسجد المبارك المذكور. وشاهدنا من شأن عجباً لا يستوفيه وصف واصف.

مناقب الإسكندرية

ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه : المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه ومُدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه وإجراءً يقوم به في جميع أحواله. واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرضَ منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء. وقد رُتب أيضاً فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة، ويُنهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم.



ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان عين لأبناء السبيل من الغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغاً ما بلغوا، ونصب لتفريق ذلك كل يوم انساناً أميناً من قبله. ينتهي في اليوم ألفي خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة، وهكذا دائماً، ولهذا كله أوقاف من قبله حاشا ما عيّنه من زكاة العين لذلك. وأكد على المتولين لذلك متى نقصهم من الوظائف المرسومة شيء أن يرجعوا إلى صلب ماله . وأما أهل بلده ففي نهاية من الترفيه واتساع الأحوال لا يلزمهم وظيف البتة . ولا فائد للسطان بهذا البلد سوى الأوقاف المحبسة المعينة من قبله لهذه الوجوه وجزية اليهود والنصارى وما يطرأ من زكاة العين خاصة، وليس له منها سوى ثلاثة أثمانها والخمسة الأثمان مضافة للوجوه المذكورة.



وهذا السلطان الذي سن هذه السنن المحمودة ورسم هذه الرسوم الكريمة على عدمها في المدة البعيدة هو صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب، وَصَلَ الله صلاحه وتوفيقه.

ومن أعجب ما اتفق للغرباء أن بعض من يريد التقرب بالنصائح إلى السلطان ذكر أن أكثر هؤلاء يأخذون جراية الخبز ولا حاجة لهم بها رغبة في المعيشة لأنهم لا يصلون إلا بزاد يُقلهم. فكاد يؤثر سعيُ هذا المتنصح. فلما كان في أحد الأيام خرج السلطان المذكور على سبيل التطلع خارج بلده، فتلقى منهم جماعة قد لفظتهم الصحراءِ المتصلة بطرابلس، وهم قد ذهبت رسومهم عطشاً وجوعاً. فسألهم عن وجهتهم واستطلع ما لديهم. فأعلموه أنهم قاصدون بيت الله الحرام وأنهم ركبوا البر وكابدوا مشقة صحرائية. فقال: لو وُصل هؤلاء وهم قد اعتسفوا هذه المجاهل التي اعتسفوها وكابدوا من الشقاء ما كابدوه ، وبِيَد كل واحد منهم زِنَتِه ذهباً وفضة لوجب أن يُشاركوا ولا يُقطعوا عن العادة التي أجريناها لهم، فالعجب ممن يسعى على مثل هؤلاء ويروم التقرب إلينا بالسعي في قطع ما أوجبناه لله عز وجل خالصاً لوجهه.

ومآثر هذا السلطان ومقاصده في العدل ومقاماته في الذب عن حوزة الدين لا تُ حصى كثرة .

ومن الغريب أيضا في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع أحوالهم. وهو أكثر بلاد الله مساجد ، حتى إن تقدير الناس لِها يُطفف ، فمنهم المُكثر المُقلل ، فالمُكثر ينتهي في تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد ، والمُقلل ما دون ذلك لا ينضبط ، فمنهم من يقول ثمانية آلاف ومنهم من يقول غير ذلك. وبالجملة فهي كثيرة جداً تكون



منها الأربعة والخمسة في موضوع وربما كانت مركبة وكلها بأئمّة مرتبين من قِبَل السلطان، فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية في الشهر، وهي عشرة مؤمنية، ومنهم من له فوق ذلك ومنهم من له دونه. وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان. غير ذلك مما يطول ذكره من المآثر التي يضيق عنها الحصر.

الخروج من الإسكندرية

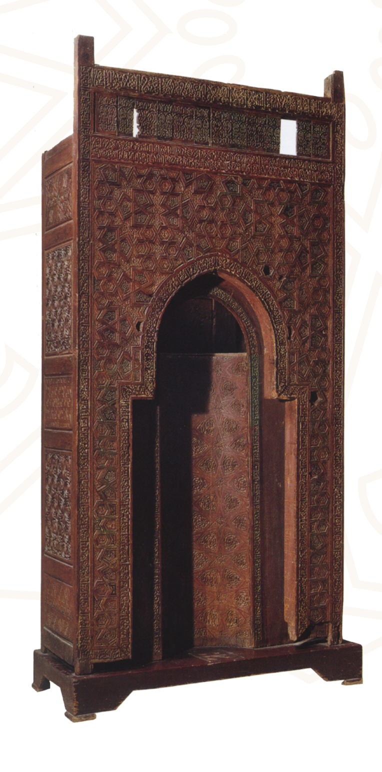
ثم كان الانفصال عنها على بركة الله تعالى وحسن عونه، صبيحة يوم الأحد الثامن لذي الحجة المذكور، وهو الثالث لأبريل، فكانت مرحلتنا منه إلى موضع يعرف بدمنهور، وهو بلد مُسَوّر في بسيطٍ من الأرض أفْيَح، متصل من الإسكندرية إليه إلى مصر. والبسيط كله محرَث يَعُمه النيل بفيضه، والقُرى فيه يميناً وشمالاً لا تحصى كثرة.

ثم في اليوم الثاني ،وهو يوم الاثنين، أجزنا النيل بموضع يعرف بصافي مركب تعدية. واتصل سيرنا إلى موضع يُعرف ببرِمَة فكان مبيتنا بها، وهي قرية كبيرة فيها السوق وجميع المرافق. ثم بكرنا منها يوم الثلاثاء، وهو يوم عيد النحر من سنة ثمان وسبعين وخمس مئة المؤرخة، فشاهدنا الصلاة بموضع يُعرف بطندته[طنطا]، وهي من القرى الفسيحة الآهلة، فأبصرنا بها مجمعاً حفيلاً، وخطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة. واتصل سيرنا موضع يعرف بسُبْك وكان مبيتنا بها.

واجتزنا في ذلك اليوم على موضع حسن يعرف بمليج، والعمارة متصلة والقرى منتظمة في طريقنا كلها. ثم بكرنا منها يوم

الأربعاء بعده. فمن أحسن بلد مررنا عليه موضع يُعرف بقليوب على ستة أميال من القاهرة ، فيه الأسواق الجميلة ومسجد

جامع كبير حفيل البنيان، ثم بعده المِنيَة، وهو موضع أيضاً حفيل، ثم منها إلى القاهرة، وهي مدينة السلطان الحفيلة المتسعة، ثم منها مصر المحروسة. وكان دخولنا فيها إثر صلاة العصر من يوم الأربعاء، وهو الحادي عشر من ذي الحجة المذكور والسادس من أبريل، عرفنا الله فيها الخير والخبرة وتمم علينا صنعه الجميل بالوصول إلى الغرض المأمول ولا أخلانا من التيسير والتسهيل بعزته وقدرته، إنه على ما يشاء قدير.



وفي يوم الأربعاء المذكور، أجزنا القسم الثاني من النيل في مركب تعدية أيضاً بموضع يعرف بدُجوة، وذلك وقت الغداة الصغرى، وكان نزولنا في مصر بفندق أبي الثناء في زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص، رضي الله عنه، في حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور.

ذكر مصر والقاهرة

فأول ما نبدأ بذكره منها الآثار والمشاهد المباركة التي ببركتها يمسكها الله عز وجل:

فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، وهو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض قد بني عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه ولايحيط الإدراك به، مجلل بأنواع الديباج، محفوف بأمثال العمد الكبار شمعاً أبيض ومنه ما هو دون ذلك، قد وُضع أكثرها في أتوار فضة خالصة ومنها مذهبة، وعلقت عليه قناديل فضة، وحُفَّ أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهباً في مصنع شبيه الروضة يقيد الأبصار حسناً وجمالاً، فيه من أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما لا يتخيله المتخيلون ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون.

والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها في التأنق والغرابة، حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة، وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها بيتان من كليهما المدخل إليها وهما أيضاً على تلك الصفة بعينها. والأستار البديعة الصنعة

من الديباج معلقة على الجميع.

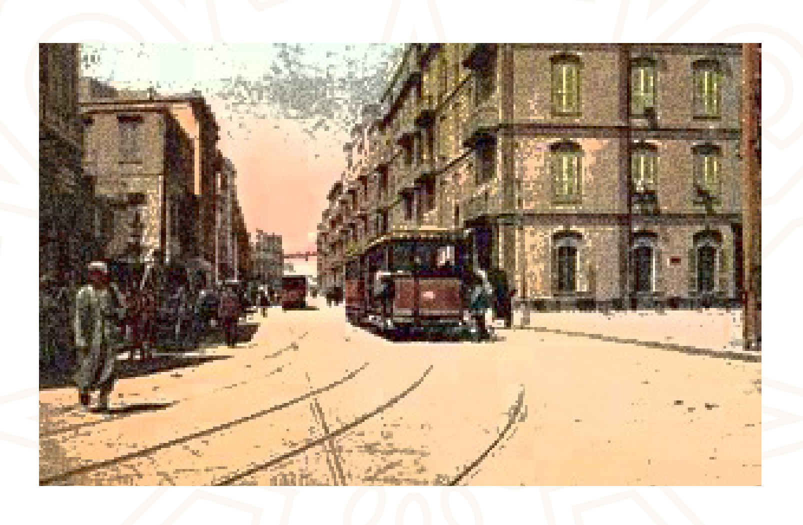
ومن أعجب ما شاهدناه في دخولنا هذا المسجد المبارك حجر موضوع في الجدار الذي يستقبله الداخل شديد السواد والبصيص، يصف الأشخاص كلها كأنه المِرآة الهندية الحديثة الصقل. وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك، وإحداقهم به وانكبابهم عليه وتمسّحهم بالكسوة التي عليه وطوافهم حوله مزدحمين باكين متوسلين الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة، ومتضرعين ما يُذيب الأكباد ويصدع الجماد. والأمر فيه أعظم، ومرأى الحال أهول، نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم. وإنما وقع الإلماع بنبذة من صفته مستدلاً على ما وراء ذلك إذا لا ينبغي لعاقل أن يتصدى لوصفه لأنه يقف موقف التقصير والعجز. وبالجملة فما أظن في الوجود كله مصنعاً أحفل منه، ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبدع، قدس الله العضو الكريم الذي فيه بمنه وكرمه.



وفي ليلة اليوم المذكور بتنا بالجبانة المعروفة بالقرافة، وهي أيضاً إحدى عجائب الدنيا لما تحتوي عليه من مشاهد الأنبياء صلوات الله عليهم، وأهل البيت رضوان الله عليهم، والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ذوي الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة. وإنما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته فمنها قبر ابن النبي صالح، وقبر روبيل بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم أجمعين، وقبر آسية امرأة فرعون رضي الله عنها، ومشاهد أهل البيت رضي الله عنهم أجمعين، مشاهد أربعة عشر من الرجال، وخمس من النساء. وعلى كل واحد منها بناء حفل. فهي بأسرها روضات بديعة الإتقان عجيبة البنيان، قد وكل بها قومه يسكنون فيها ويحفظونها .ومنظرها منظر عجيب، والجرايات متصلة لقوامها في كل شهر. [...].

قلعة القاهرة

وشاهدنا أيضاً بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المَنَعة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه، ويمد سوره حتى ينتظم



بالمدينتين مصر والقاهرة. والمسخرون في هذا البنيان المتولون لجميع امتهاناته ومؤونته العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور العظام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور وهو خندق ينقر بالمعاول نقراً في الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار، العُلوج الاسارى من الروم، وعددهم لا يُحصى كثرة، ولا سبيل أن يمتهن في ذلك البنيان أحد سواهم.

وللسلطان أيضاً بمواضع أخَر بنيان والأعلاج يخدمونه فيه، ومن يمكن استخدامه من المسلمين في مثل هذه المنفعة العامة مُرفّه عن ذلك كله ولا وظيفة في شيء من ذلك على أحد.

مارستان المجانين

ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان، المارستان الذي بمدينة القاهرة. وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً وعيّن قيماً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها. ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسِرّة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكُسى. وبين يدي ذلك القيم خَدَمَة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلوَن من الأغذية والأشربة بما يليق بهم.

وبإزاء هذا الموضع، موضع مقتطع للنساء المرضى. ولهن أيضاً من يكفلهن. ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء، فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين.

ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها. والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد. وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه.

مسجد ابن طولون

وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير المنسوب أبي العباس أحمد بن طولون، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويُحَلقون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر. ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم إليهم ولم يجعل يداً لأحد عليهم. فقدموا من أنفسهم حاكماً يمتثلون أمره ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده، واستصحبوا الدّعة والعافية، وتفرغوا لعبادة ربهم، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذي هم بسبيله.

مآثر السلطان ومفاخره

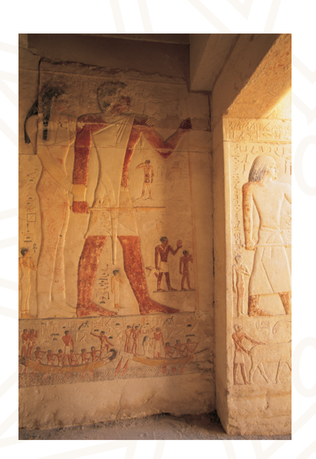
وما منها جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوي إليها ويلزم السكنى فيها، تهون عليه في ذلك نفقات بيوت الأموال.

ومن مآثره الكريمة المُعْرِبة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة أنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله، عز وجل، يعلمون أبناء الفقراء والأيتامِ خاصة وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم.

ومن مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين القناطر التي شرع في بنائها بغربي مصر، وعلى مقدار سبعة أميال منها، بعد رصيف ابْتُدِئ به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض، تسير فيه مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة، وهي نحو الأربعين قوساً من أكبر ما يكون من قِسِي القناطر. والقنطرة متصلة بالصحراء التي يُفضي منها إلى الإسكندرية، له في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحَزَمة إعداداً لحادثة تطرأ من عدو يَدْهَمُ جِهة ثغر الإسكندرية عند فيض النيل وانغمار الأرض به وامتناع سلوك العساكر بسببه. فأعد ذلك مسلكاً في كل وقت إن احتيج إلى ذلك. والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومحذور بِمنّه.

ولأهل مصر في شأن هذه القنطرة إنذار من الإنذارات الحَدَثانية ،يرون أن حدوثها إيذان باستيلاء الموحدين عليها وعلى الجهات الشرقية، والله أعلم بغيبه، لا إله سواه.

معجزة البناء



وبمقربة من هذه القنطرة المحدثة الأهرام القديمة، المعجزة البناء، الغريبة المنظر، المربعة الشكل، كأنها القباب المضروبة قد قامت في جو السماء، ولا سيما الاثنان منها، فإنهما يغص الجو بهما سمواً، في سعة الواحد منها من أحد أركانه الركن الثاني ثلاث مئة خطوة وست وستون خطوة. قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة. وركبت تركيباً هائلاً بديع الإلصاق دون أن يتخللها ما يعين على إلصاقها، محددة الأطراف في رأي العين، وربما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة فتلفى أطرافها المحددة كأوسع ما يكون من الرحاب، لو رام أهل الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك.

للناس في أمرها اختلاف: فمنهم من يجعلها قبوراً لعاد وبنيه، ومنهم من يزعم غير ذلك. وبالجملة فلا يعلم شأنها إلا الله عز وجل.

ولأحد الكبيرين منها باب يُصعد إليه على نحو القامة من الأرض أو أزيد ويدخل منه بيت كبير سعته نحو خمسين شبراً وطوله نحو ذلك. وفي جوف ذلك البيت رخامة طويلة مجوفة شبه التي تسميها العامة البيلة يقال إنها قبر، والله أعلم بحقيقة ذلك.

ودون الكبير هرم سعته من الركن الواحد الركن الثاني مئة وأربعون خطوة. ودون هذا الصغير خمسة صغار وثلاثة متصلة والاثنان على مقربة منها متصلان.

وعلى مقربة من هذه الأهرام بمقدار غَلوة صورة غريبة من حجر قد قامت كالصومعة على صفة آدمي هائل المنظر، وجهه إلى الأهرام وظهره القبلة مهبط النيل، تعرف بأبي الأهوال.

وبمدينة مصر المسجد الجامع المنسوب لعمر بن العاص رضي الله عنه. وله أيضاً بالإسكندرية جامع آخر هو مُصَلى الجمعة للمالكيين. بمدينة مصر آثار من الخراب الذي أحدثه الإحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين، وذلك سنة أربع وستين وخمس مئة، وأكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل. وهي مدينة كبيرة والآثار القديمة حولها، وعلى

مقربة منها ظاهرة تدل على عظمة اختطاطها فيما سلف.

روضة النيل

وعلى شط نيلها مما يلي غربيها، والنيل معترض بينهما، قرية كبيرة حفيلة البنيان تعرف بالجيزة. لها كل يوم أحد ، سوق من الأسواق العظيمة يُجتَمَع إليها.

ويعترض بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسان وعلالي مشرفة وهي مجتمع اللهو والنزهة، وبينها وبين مصر خليج من النيل يذهب بطولها نحو الميل ولها مخرج له. وبهذه الجزيرة مسجد جامع يخطب فيه. ويتصل بهذا الجامع المقياس الذي يعتبر فيه قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنة. واستشعار ابتدائه في شهر يونيه، ومعظم انتهائه أغشت، وآخره أول شهر أكتوبر. وهذا المقياس عمود رخام أبيض مثمن في موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه، وهو مُفصّل على اثنتين وعشرين ذراعاً مقسمة على أربعة وعشرين قسماً تعرف بالأصابع. فإذا انتهى الفيض عندهم إلى أن يستوفي الماء تسع عشرة ذراعاً منغمرة فيه فهي الغاية عندهم في طيب العام. وربما كان الغامر منه كثيراً بعموم الفيض. والمتوسط عندهم ما استوفى سبع عشرة ذراعاً، وهو الأحسن عندهم من الزيادة المذكورة. والذي يستحق به السلطان خراجه في بلاد مصر ست عشرة ذراعاً فصاعداً، وعليها يُعطي البشارة الذي يراعي الزيادة في كل يوم والزيادة في أقسام الذراع المذكورة ويُعلِم بها مياومة حتى تستوفي الغاية التي يقضي بها. وإن قصّر عن ست عشرة ذراعاً فلا مَجْبى للسلطان في ذلك العام ولا خراج.

وذُكر لنا أن بالجيزة المذكورة قبر كعب الأحبار رضي الله عنه. وفي صدر الجيزة المذكورة أحجار رخام قد صورت فيها التماسيح، فيقال: إن بسببها لا تظهر التماسيح فيما يلي البلد من النيل مقدار ثلاثة أميال علواً وسُفلاً، والله أعلم بحقيقة ذلك.

عدل صلاح الدين

ومن مفاخر هذا السلطان المُزلفة من الله تعالى وآثاره التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا: إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين. فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استيدائها عَنتاً مُجحفاً ويُسامون فيها خطة خسف باهظة. وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته أولا نفقة عنده فيلزم أداء الضريبة المعلومة، وكانت سبعة دنانير

ونصف دينار من الدنانير المصرية التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية على كل رأس، ويعجز عن ذلك، فيتناول بأليم العذاب بعيذاب. كاسْمِها مفتوحة العين.

وربما اختُرِع له من أنواع العذاب التعليق من الأنثَيَين أو غير ذلك من الأمور الشنيعة، نعوذ بالله من سوء قدره. وكان بجدة أمثال هذا التنكيل وأضعافه لمن لم يؤد مكسه بعيذاب ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الأداء، فمحا هذا السلطان هذا الرسم اللعين ودفع عوضاً منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها، وعين مَجْبى موضع معيّن بأسره لذلك، وتكفل بتوصيل جميع ذلك إلى الحجاز لأن الرسم المذكور كان باسم مِيرة مكة والمدينة، غمرهما الله، فعوّض من ذلك أجمل عَوَض، وسهل السبيل للحجاج، وكانت في حيز الانقطاع وعدم الاستطلاع، وكفى الله المؤمنين على يدي هذا السلطان العادل حادثاً

عظيماً وخطباً أليماً. فترتب الشكر له على كل من الناس أن حج البيت الحرام إحدى القواعد الخمس من الإسلام، حتى يعم جميع الآفاق ويوجب الدعاء له في كل صقع من الأصقاع وبقعة من البقاع، والله من وراء مجازاة المحسنين، وهو، جلت قدرته، لا يضيع أجر من أحسن عملاً .إلى مكوس كانت في البلاد المصرية وسواها ضرائب على كل ما يباع ويشترى مما دق أوجل، حتى كان يؤدى على شرب ماء النيل المكس فضلاً عما سواه. فمحا هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها وبسط العدل ونشر الأمن.

ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسُّبُل أن الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرفاً فيما يعنيهم، ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم. على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والإسكندرية حسبما تقدم ذكره.

من رحلة :[9] تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار[6]

العبدري
(1248م- 1341م)

خرج أبو عبد الله العبدري من المغرب نحو بلاد الحجاز ، برا، في العاشر من دسمبر 1289بعد قيام دولة المرينيين بنحو 20 سنة ، وقد شرع في تدوين رحلته انطلاقا من تلمسان ، عابرا ليبيا ثم مصر التي توقف فيها بالاسكندرية والقاهرة ،ذهابا وإيابا واصفا ومنتقدا ، متعلما ومعلما ومناظرا لعلمائها .

الوصول الى الإسكندرية

وبعد حفظ ما دَلَّ عليه هذا العنوان، واتصال التُّخْمَةِ بتلك الألوان ، مَنَّ الله سبحانه بمفارقة تلك البرية ، والوُصُولِ إلى مُواصَلَةِ ثغْرالإسكندرية. مدينة الحصانة والوَثَاقَة ، وبلد الإشْرَاقِ اللاَّمعِ والطَّلاَقَة، ، وطَلاَوَةِ المنظر وَ حَلاَوَةِ الْمَذَاقَة. كَلَّ عَنْهَا ظُفْرُ الزَّمَانِ وَنَابُه، ومَلَّ مِنْهَا جَيْشُ الْحَدَثَانِ وَأَحْزَابُه . فَلَمْ تَبْدُ عليها للزمان ضَرَاعَة، وَلاَ وَكَسَتْ لها في مُعَامَلاَتِه سِلْعَةُ وَلاَ بِضَاعَة، وَلاَ وَقَفَتْ لَهُ مَوْقِفَ ذُلٍّ يوما ولا ساعة، بَلْ ثَبَتَتْ لِحِزْبِهِ ثُبُوتَ الْبَطَلِ، وَصَابَرَتْ كَيْدَهُ حتى اضْمَحَلَّ سِحْرُهُ وَبَطَل، وَ لَمْ تُصْغِ أُذُناً إلى ما يُوعَدُ به منَ الْخَنَا والْخَطَل. فهي واقفةٌ وقوف الأَطْوَاد، سَامِيَةٌ بِطَرْفٍ غَيْرِ كَليلٍ وَجِيدٍ غَيْرِ مُنْآد. آخِذَةٌ من الكفر وأهله بالْمُخَنَّق، حتى أَبْدَلَتْهُمْ مِنَ الصَّافي الْمُرَوَّقِ الْكَدرَ الْمُرَنَّق ، فَسَامَرُوا الأَسَفَ مُسَامَرَةَ النَدَى لِلْمُحَلّقِ ، وَدَجَا عَلَيْهِمْ لَيْلُ هَمٍّ اِدْلَهَمَّ بعد نهار سرور تَأَلَّق، واضطرم عليهم الأسى واحتدم ، فحالفوا الندم وقالوا: عَوْضُ لاَ نَتَفَرَّق.

مدينة فسيحة الميدان ، صحيحة الأركان ، مليحة البنيان ، تُسْفِرُ عن مُحَيَّا جميل المنظَر، وَتَرْنُو بِطَرْفٍ سَاجٍ أَحْوَر. تَبْسَمُ عن ثغر كالأُقْحُوانِ إذاَ نَوَّر، كأنه لم يَغِبْ عنها شخص الإسكندر، بما سَاسَ فيها من عجائب مبانيها وَدَبَّر، ناهيك بمدينة كلها عجب، قد سَتَرَ حُسْنُهَا حُسْنَ غيرها وَحَجَب، وَوَفَّى فيها الإتْقَانُ حَقَّهُ كما وَجَب، وقد أَغْنَى عن تسطير وصفها ما سَطَّرَهُ الأعلام وَصَرَّتْ به عَلَى الْمَهَارِقِ الأَقْلاَم.

ومن جملة إبداعها وإغرابها ما رأيت من إتقان أبوابها . وذلك أن عَضَائِدَهَا وَعُتَبَهَا مع فرط طول الأبواب كلها منحوتة يُتَعَجَّبُ من حسنها وإتقانها . وكل عضادة منها حجر واحد ، وكذلك كل عتبة وأُسْكُفَّةٍ . ولا أعجب من وضعها هنالك مع إفراط عظمها ، ولم يُغَيِّرْ طول الزمان شيئا من ذلك، ولا أثر فيه ، بل بقي بجدته ورَوْنَقِه.

وأما مَصَارِيعُهَا فهي غاية في الإحكام مُلَبَّسَةُ بالحديد ظَهْراً وبَطْناً بِأَدَقِّ ما يكون من الصنعة، وأحسنه وأتقنه.



ومن أغرب ما رأيته بها عمود من رخام بظاهرها يعرف«بعمود السواري» وهو حجر واحد مستدير عال جدا ، على قدر الصومعة المرتفعة . وهو يبدو من بعيد بارزا في غابة النخيل مرتفعا عنها، وقد أقيمَ على حجارة منحوتة مرتفعة على قدر الدكاكين العظام. عُلُوُّهَا أزيد من قامتين. ولاَ يُعْلَمُ كيف أقيم عليها، ولا كيف ثبت هنالك مع الرياح العواصف، وهو مما لا يُمْكِنُ تحريكه البتة فضلا عن إقامته هناك.

منار الإسكندرية

وأما المنار فقد كَتَبَ فيه الناس وسطروا ما فيه الكفاية. وقد دخلته وتأملته وما وصلت إلى أعلاه إلا بعد جهد . ولا يظهر له من خارج فرط علو. وهو خارج المدينة على أزيد من ثلاثة أميال . وهو على تل مرتفع بشمال البلد . وقد أحاط به البحر شرقا وغربا حتى تآكل حجره من الناحيتين فَدُعِّمَ منهما ببناء وثيق اتصل إلى أعلاه ، وزِيدَ دَعْمًا بدكاكين متسعة وثيقة وُضِعَ أساسها في البحر، ورُفِعَتْ عنه ثلاث قامات .

وباب المنار مرتفع عن الأرض نحو أربع قامات ، وبُنِيَ إليه بنيان حتى حَاذَاهُ ولم يَتَّصِلْ به ووُضِعَتْ عليه ألواح يمشى عليها إلى الباب ، فإن أزيلَتْ لم يُوصَلْ إليه. وفوق الباب من داخل المنار عدة بيوت رأيتها مغلقة. وسعة الْمَمَرِّ فيه ستة أشبار، وفي غِلَظِ الحائط عشرة أشبار. ذَرَعْتُهُ من أعلاه . وسعة المنار من ركن إلى ركن مائة وأربعين شبرا. وفي أعلاه جامورعليه آخر دونه ، وفوق الأعلى قبة مليحة يُطْلَعُ إليها في درج مشرعة إلى النواحي ولها محراب للصلاة .

ومن الإسكندرية إلى المنار بر متصل أحاط به البحر حتى اتصل بسور البلد ، فلا يُمْكِنُ الوصول إلى المنار في البر إلا من البلد وفي هذا البر مقابر الإسكندرية، وفيها من المزارات وقبور العلماء والصالحين ما لا يُعَدُّ كثرة.

وفي ما سطر الناس من وصف الإسكندرية ومنارها وما ذكروا من عجائب آثارها ما

هو الغاية في إتقان الوصف وإجادته، وما يُغْنِي عن تَكَلُّف إعَادَته، بيد أنها الآن بَلَدٌ زَادَتْ صُورَتُهُ على معناه، وَاسْتَأْثَرَ بالفَضَائِلِ مَغْنَاه. فهو كجسم لا روح فيه أو بُـرْدٍ مُفَوَّفٍ خَلاَ من مُلْتَحِفيه، أو غِمْدٍ مُرَقَّش انْدَقَّ الصَّارِمُ الذي كان يُخْفِيه. أكثر أهلها رُعَاع، . ضَرَرٌ بلا انْتِفَاع، مع سوء أخلاق ومرارة مَذَاق، وقُلُوب رَبَّاهَا الضَّغْنُ تربية الأولاد وجَفَاهَا الخير والصلاح لَمّا عمرهَا من الشر والفساد. الخَيْرُ فيهِمْ فِعْلٌ لاَ يَتَصَرَّفُ، وَالْغَرِيبُ بينهم نَكِرَةٌ لاَ تَتَعَرَّفُ. إنْ رَأَوْهُ زَادُوا الْوُجُوهَ جَهَامَةً، وَنَكَّرُوا منها ما قد نَكَّرَتْهُ الدَّمَامَةُ وَالذَّمَامَةُ وَجَمْجَمُوا قَوْلاً رَمَاهُ اللَّكَنُ عَنْ قَوْسِ الْعُجْمَةِ سِهَامَه . الْحَسَدُ فيهم مُضْطَرِمُ النِّيرَان، قد أَفْسَدَ أَمْزِجَتَهُمْ فَحَالَتِ الأَلْوَان، فإن سَمِعُوا بفاضل فهو يوم بُحْرَان أَخْرَسَهُمُ الْعَيُّ فَعَادُوا بالصُّمَات فإن سُئِلُوا سَكَتُوا لاَ عَنْ كِبْرٍ وَلاَ عَنْ إِخْبَات، ومنهم من أَضْنَاهُ الْحَسَدُ فالسُّكُوتُ منه سُبَات. تَمَالَؤُواْ عَلَى كُلِّ وَصْفٍ شَانَ وَمَا زَان، وَتَوَاطَؤُواْعلى تَطْفِيفِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَان. فإن عَامَلَهُمْ غَرِيبٌ ، لَمْ يَلْقَ منهم إلاَّ مَا يُرِيب. يَتَّخِذُونَهُ هَدَفاً وَلِكُلٍّ منهم فِيهِ سَهْمٌ مُصِيب، حتى يخرج من ماله بغير نصيب. لا تُرْجَى منهم فِيئَةُ إِنَابَةٍ، وَلاَ تُلْفَى منهم فِئَة رَأْفَةٍ وَلاَعِصَابة. ولا ينفعُ الغريبَ في معاملتهم أن يقول لا خلاَبَة . حَسْبُكَ ببلد أَرْبَى في الحسن على البلاد، وله من الفضيلة كل طَارِفٍ وتِلاَد، وليس به من أهل الفضل إلا آحاد. قَلُّواْ عَدَدًا واتَّحَدُواْ كل الاتحاد. فَهُمْ فيهم أَقَلُّ من التَّوْفِيق، غُرَبَاءُ بينهم في كـل معنى وطريق.

ومن الأمر المستغرب والحال الذي أفصح عن قلة دينهم أنهم يعترضون الحجاج و يُجَرِّعُونَهُمْ من بحر الإهانة الْمِلْحَ الأُجَاج، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج. يبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال، وقد رأيت من ذلك يوم وُرُودِنَا عليهم ما اشتد له عجبي وَجَعَلَ الانْفِصَالَ عنهم غَايَةَ أَرَبِي، وذلك أنه لما وصل إليها الركب، جاءت شرذمة من الحرس ـ لاَحَرَسَ الله مُهَجَهُمْ الْخَسِيسَةَ وَلاَ أَعْدَمَ منهم لأُسْدِ الآفَاتِ فريسة ـ فَمَدُّواْ في الحجاج أيديهم، وفتشوا الرجال والنساء، وأَلْزَمُوهُمْ أنواعا من المَظَالِمِ، وَأَذَاقُوهُمْ ألوانا من الهوان، ثم اسْتَحْلَفُوهُمْ وراء ذلك كله.

وما رأيت هذه العادة الذميمة والشيمة اللئيمة في بلد من البلاد ، ولا رأيت في الناس أقسى قلوبا، ولا أقل مروؤة وحياء، ولا أكثر إعراضا عن الله سبحانه وجفاءً لأهل دينه من أهل هذا البلد . نعوذ بالله من الخِذْلاَنِ ، فلو شاء لاَعْتَدَلَ المائل وانْتَبَهَ الْوَسْنَان.

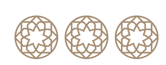
وكنتُ إذ رأيت بها فعل المذكورين ظننتُ أن ذلك أمرا أحدثوه، حتى حدثني نور الدين أبو عبد الله بن زين الدين أبي الحسن بن الشيخ وجيه الدين أبي علي منصور بن عبد العزيز بن حباسة الإسكندري بمدرسة جده المذكور حكاية اقتضت أن لهم في هذه الفضائح سلفا غير صالح وذلك أنه حدثني إملاءً من كتابه قال : حدثني الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن عمرو بن

محمدالسبتي الحميري بثغر الإسكندرية سنة اثنتين وستين وست مائة (662ه- 1264م) قال : حدثني الشيخ الإمام المحدث أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الإسكندري سنة إحدى عشرة وست مائة(611ه)أنه ورد الإسكندرية في ركب عظيم من المغاربة برسم الحج فأمر الناظر على البلد بمد اليد فيهم للتفتيش والبحث عما بأيديهم . فَفُتِّشَ الرجال والنساء وهُتِكَتْ حُرْمَةُ الْحُرَم ، ولم يكن فيهم إبقاء على أحد، قال : فلما جاءتني النوبة ـ وكانت معي حرم ـ ذَكَّرْتُهُمْ بالله ووَعَظْتُهُمْ ، فلم يعرجوا على قولي ولاَ التفتوا إلى كلامي ، وفتشوني كما فتشوا غيري . فَاسْتَخَرْتُ الله ونظمتُ هذه القصيدة ناصحا لأمير المسلمين صلاح الدين بن أيوب [...].

قلت: قد جَمَحَ القلم في هذا الفصل بحسب استطراد القول ، فقطع عما كنت فيه من ذكر أهل الإسكندرية ، ووصف بعض أحوالهم الردية . وهي أكثر من يحصرها بيان أو يحيط بها خبر ولا عيان، ولكنها نفْثَةُ مَصْدُور، ولَفْظَةُ جَرَى بها المقدور. وبوُدِّي لَوْ لَمْ أَرَ إلا حسنا فَأَذْكُرَه وَلَمْ أَلْقَ إِلاَّ مَشْكُورًا فَأَشْكُرُه. ولو كان القبيح يَجْمُلُ بغير أوصافه، والنَّاقِصُ يَكْمُلُ بذكر أسلافه، لكان أهل الإسكندرية أجمل الناس حسنا وأكملهم في كل معنى بوجود بعض الأفراد فيهم، وسكنى الآحاد الْمُبَرَّزِينَ في العلم والدين بِمَغَانِيهِم، ولكن الموتى إذا جَاوَرَهُمُ الْأَحْيَاء، لَمْ يَحْصُلْ لهم بمجاورتهم الْإِحيَاء ، بل بِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأشياء.

أهل الفضل

وقد رأيت بها أفرادا من أهل الفضل علما ودينا . وَدِدْتُ لَوْ مُنِحْتُ في ذكر فضلهم قلبا حافظا ولسانا مُبِينًا. فمنهم من اسْتَكْتَمَنِي اسمه وعَاقَدَنِي على أَلاَّ أَذْكُرَ رَسْمَه، عَمَلاً على مَنْهَجِ زُهْدِه، وَمَحَجَّة تَقْوَاه، وَ صَوْنًا لِلْأُخُوَّة أن يَشُوبَهَا حَظٌّ لِغَيْرِ الله، عَلَى أَنِّي لَوْ سَمَّيْتُهُ وَحَلَّيْتُهُ لَقَصُرَ بي كُلُّ مَا رَوَيْتُه وَرَأَيْتُه. وَكَيْفَ يُوَفِّي اللِّسَانُ ـ وَإِنْ أَطْنَبَ فِي شُكْرِهِ ـ حَقَّ مَنْ يُسْتَنْزَلُ الْقَطْرُ بِذِكْرِه. نفعه الله وإياي بجميل قصده، وتغمد كلا منا برحمة تُولِيهِ الصَّفْحَ عَنْ سَهْوِهِ وَعَمْدِه، وَأَوْزَعَنِي شُكْرَ مَا مَنَحَنِي مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَيَّ بِحُبِّه، وَ أَفَاضَ عَلَيَّ مِنْ بَرَكَاتِه وأَنْوَارِقَلْبِه. [...].



ولما عَزَمْتُ على السفر قال لي:أَتَعْلَمُ أني بِتُّ البارحة مهموما، قلت: لماذا؟ قال: لأجل فراقك. وقَيَّدَ اسمي ونسبي في برنامج شيوخه ، وقيد عني أبياتا من شعري ، وكتب بخطه جميع القصيدة التي كتبت بها إلى ولدي محمد وفقه الله من القيروان، وبالغ في استحسانها. وسمع مني القصيد الحجازي الذي قلته في طريق الحج. ولما ودّعني في مُنصرفي إلى الحجاز أخذ

بيدي، وقال لي "أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِمَ عَمَلِكَ" ثلاث مرات ، ثم قال لي: رُدَّ عَلَيَّ مِثْلَهَا، ففعلت، وأنشدني مودعا باكيا، في انصرافي عنه إلى المغرب:

وَدِّعُكُمْ وَأُودِعُكُمْ جَنَانِي وَأَنْثُرُ عَبْرَتِي نَثْرَ الْجُمَانِ

وَقَلْبِي لاَ يُرِيدُ لَكُمْ فِرَاقًا وَلَكِنْ هَكَذَا حُكْمُ الزَّمَانِ

ولقيت بالإسكندرية أشخاصا عرفني بهم سيدي الشريف المذكور، وذكرأن لهم إسنادا، واستجازهم لي فأجازوني، وكتبوا لي خطهم بذلك، ولم أسمع منهم شيئا لانحفازي للسفر. وإجازتهم كلها عامة. وكان الشيخ أبو الحسن المذكور هو الذي دار بي عليهم، وقيد لي بعض مسموعاتهم، شكر الله اهْتِبَالَهُ، وَأَنْعَمَ بَالَهُ، بمنه وكرمه.

الوصول إلى مدينة القاهرة

[...]وكان وصولنا إلى هذه المدينة في أخريات رمضان ، فأتممنا الشهر بها ، وصلينا معهم صلاة العيد، وهم يصلونها في المساجد، وبعضهم في ساحة تحت القلعة، وسط البلد، ولا يَبْرُزُونَ لها كما وَرَدَتْ به السُّنَّةُ. ولم نَرَ منهم يومئذ من صَدَرَ منه التَّأْنِيسُ بكلمة ، ومما قلت في ذلك:

ذَكَرْتُ بِيَوْمِ الْفِطْرِ فِي مِصْرَ إِذْ أَتَى وَقَوْسُ النَّوَى تَرْمِي الْحَشَا أَسْهُمَ الْكَرْبِ

فِرَاخًا نَأَى أُنْسِي بِنَأْيِ مَحَلِّهِمْ وَصَحْبًا كِرَامًا ضَمَّهُمْ أُفُقُ الْغَرْبِ

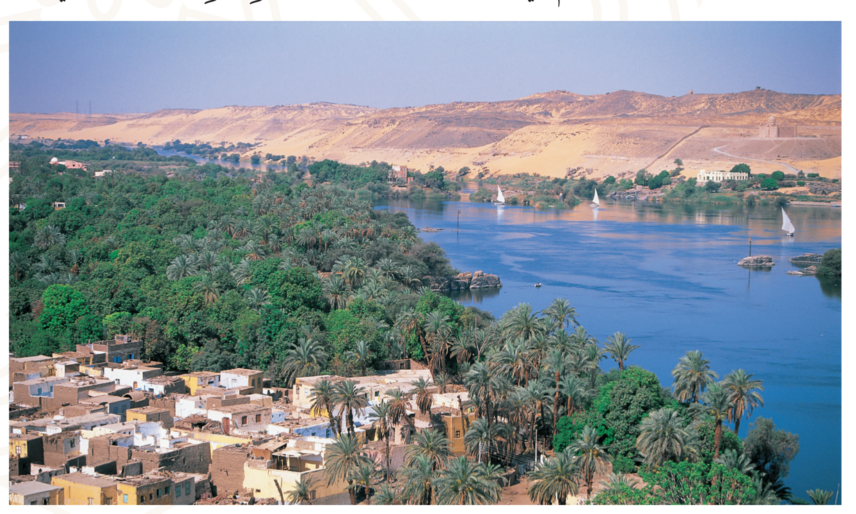
فَأَفْطَرْتُ مِنْ قَبْلِ الْغُدُوِّ بِعَبْرَةٍ غَنِيتُ بِهَا يَوْمِي عَنِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ

وكنتُ نزلت بالمدرسة الكاملية منها، في عُلُوٍّ مشرف على السوق، فكنت قلما أَرْقُدُ إلا مُنَغَّصًا لصياح الباعة، وهم يبيعون طول الليل، وقلما يكون طعام الشريف منهم والوضيع إلا من السوق، والضغط على ذلك والزِّحَامُ مُتَّصِلٌ، والطرق غاصة بالخلق حتى ترى الماشي فيها ما له هَمٌّ سوى التَّحَفُّظِ من دَوْسِ الدَّوَابِّ إياه. ولا يمكنه تأمل شيء في السوق لأن الخلق يندفعون فيه مثل اندفاع السيل. وقد ضاعت لي بها دابة بسبب الزحام ، كان عليها شخص راكبا، فتكاثر عليه الزحام حتى أسقط عنها ، وانْدَفَعَتْ في غِمَارِ الخلق ، ولم يمكنه التوصل إليها وهو يبصرها حتى غابت عنه، وكان آخر العهد بها .

وصف النيل والأهرام والبرابي

أما أرض مصر، ونِيلُهَا، وعجائبها، وخصبها واتساعها، فأكثر من أن يحصرها كتاب، أو يحيط بها حساب .وقد سطر المؤرخون من ذلك ما أغنى عن تَرْدَادِهِ، وَشُغِلَ الْقَلَمَ بِإِيرَادِهِ. وما ظَنُّكَ بأرض هي مسيرة شهر بالنسبة لِلْمُجِدِّ .وَطِيئَةٌ سَهْلَةٌ مُغِلَّةٌ. ما بها قرية إلا وهي تُنَاظِرُ أُخْرَى، ولا بستان إلا وهو يُسَامِي آخر، ولا مدينة إلا وهي تشير إلى أختها . فما تسافر بها إلا في عِمَارَةٍ مُتَّصِلَة، وَطمأنينة من الأرض مُتَأَصِّلَة. والطرق في الصحراء غاصة بالخلق، فكأن المسافر بها لم يزل في مدينة .

ونِيلُهَا من عجائب الدنيا عذوبة واتساعا، وغِلَّةً وانتفاعا. وقد وضعت عليه المدائن والقرى، فصار كسِلْكٍ انْتَظَمَ دُرَرًا. وقد روينا في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراء وصل إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فإذا في أصلها أربعة أنهار: نهران

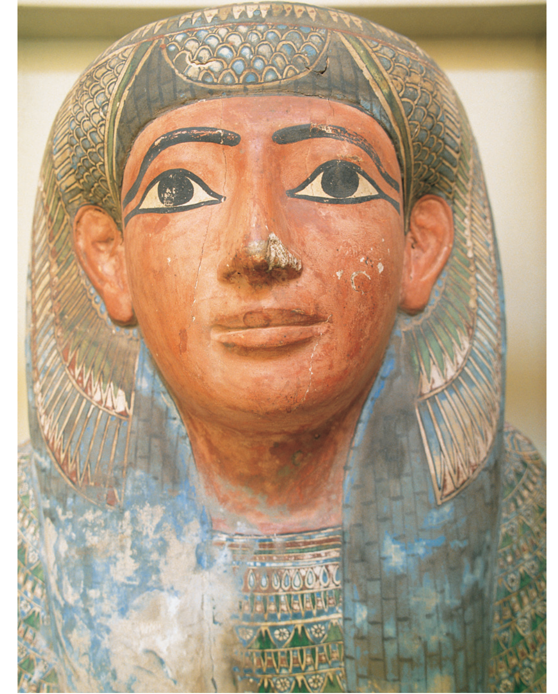


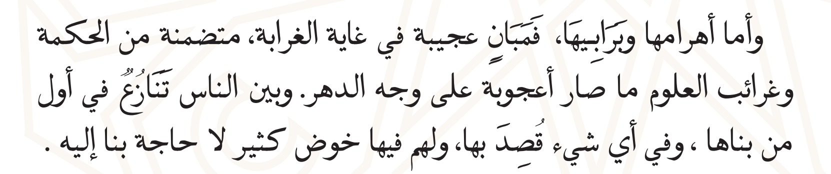
ظاهران، ونهران باطنان. فسأل عنها جبريل عليه السلام ، فقال له: أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَفِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ والْفُرَاتُ . قال البكري: فليس في الأرض نهر يُسَمَّى بحرا ويَمًّا غيره. قال تعالى: »فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ «، والْيَمُّ: البحر. فسماه بحرا ، وحُقَّ له ذلك. قال : وليس في الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل، ولا نهر يُجْبَى منه إلا جزء مما يُجبى من النيل. وابْتِدَاؤه بالتنفس في حُزَيْرَان - وهو شهر يونيو - فإذا انتهت الزيادة ستة عشر ذراعا، تَمَّ خَرَاجُ السلطان وخَصِبَ الناس الكافي ، وكان المرعى ناقصا فَأَضَرَّ بالبهائم، فإذا بلغ سبعة عشر ذراعا، فذلك الخصب العام والصلاح التام. فإذا بلغ ثمانية عشر أَضَرَّ بالضياع ، وأَعْقَبَ الْوَبَاءَ

بمصر[...].

قلت : والنيل نهرعظيم، متسع جدا. آخذ من الجنوب إلى الشمال، ويفترق بعد مسافة من فسطاط مصر على ثلاثة أنهار، ولا يُدْخَلُ واحد منها إلا في القوارب ، شتاء وصيفا. وقد دخلته من مجمع نهرين ، فقرأت حزبا من القرآن قبل أن يقطع القارب إلى الجيزة الأخرى .

وصورة السقي به أن أهل كل بلد لهم خُلُجٌ تَخْرُجُ منه، فإذا مَدَّ، أَتْرَعَهَا فَفَاضَتْ على المزارع ، وسقتها كما تسقي سائر الأنهار، وقد علموا أين ينتهي كل مقياس . ومن غرائب صُنْعِ الله أن مَدَّهُ يبتدئ في مَعْمَعَانِ الْحَرِّ وَشِدَّتِهِ، في الوقت الذي تَغِيضُ فيه الأنهار، وينتهي في الوقت الذي تمد فيه الأنهار وتفيض، فيحسر الماء عن الأرض في مبدإ زمان الحرث. وقد حكى البكري عن ابن حبيب أن الله تعالى جعل النيل معادلا لأنهار الدنيا. فحين يبتدئ بالزيادة تنقص كلها، وذلك لخمس بقين من شهر يونيه ، وحين يبتدئ بالنقصان تزيد كلها.





وأما أهرامها وبَرَابِيهَا، فَمَبَانٍ عجيبة في غاية الغرابة، متضمنة من الحكمة وغرائب العلوم ما صار أعجوبة على وجه الدهر. وبين الناس تَنَازُعٌ في أول من بناها ، وفي أي شيء قُصِدَ بها، ولهم فيها خوض كثير لا حاجة بنا إليه .

وقد ذكر القاضي صاعد، صاحب «الطبقات» أن جماعة من العلماء زعموا أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان، إنما صارت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى، وهو الذي يسميه العبرانيون خنوخ، وهو إدريس النبي عليه السلام، وأنه أول من تكلم في الجواهر العلوية، والحركات النجومية، وأول من بنى الهياكل ومجد الله تعالى فيها، وقالوا: إنه أول من أنذر بالطوفان، ورأى أن آفة سماوية تلحق الأرض من الماء أو النار، فخاف ذهاب العلم و دُرُوسَ الصَّنَائع ، فبنى الأهرام والبرابي التي في الصعيد، وصور فيها جميع الصناعات والآلاتَ ورسم فيها العلوم حرصا منه على تخليدها.

قال أبو القاسم صاعد المذكور: وكانت دار الْمُلْكِ والعلم بمصر في

قديم الدهر مدينة مَنْفٍ، وهي على اثني عشر ميلا من الفسطاط ،فلما بنى الإسكندر الإسكندرية رَغَّبَ الناس في عمارتها، فكانت دارالعلم والحكمة بمصر إلى أن تغلب عليهاالمسلمون، واختط عمرو ابن العاص على نيل مصر مدينته المعروفة بفسطاط عمرو، فانسرب أهل مصروغيرهم إليها فصارت قاعدة مصر إلى يومنا هذا.

قلت: وقد صارت اليوم المدينة التي بناها العبيديون لعنهم الله قاعدة الديار المصرية بأسرها ودارمُلْكِهَا على الإطلاق. فسبحان من له الملك على الحقيقة وإليه المرجع والمصيرلاَ رَبَّ غيره.

والأهرام مبان من حجارة صارت لإِحْكَامِهَا كالحجر الواحد في غاية العلو. متسعة الأسفل مستديرة الشكل. فكلما طَلَعَتْ انْخَرَطَتْ حتى صار أعلاها حَادًّا على شكل المخروط. وليس لها باب ولا مدخل، ولا يعلم كيف بُنِيَتْ . وقد ذكر البكري في المسالك والممالك، وذكره المسعودي - ومن كتابه نقله البكري - أن أحمد بن طولون صاحب مصر، استحضر من صعيد مصر شيخا له مائة وثلاثون سنة ، موصوفا بالعلم والحكمة . فسأله عنها، فقال: إنها بنيت لِحفْظِ جُثَثِ الملوك. فقال له: كيف بنيت بتلك الحجارة العظيمة ؟ ومن أين يُصْعَدُ عليها ؟ فقال: إنهم كانوا يَبْنُونَهَا على مَرَاقٍ أَبْرَزُوهَا من البنيان، فإذا فرغوا نَحَتُوهَا.

وذكر البكري أيضا أن شونيد بن سهلون ملك مصر قبل الطوفان رآى رؤيا هالته، وحملته على بناء الأهرام بالصخور وأعمدة الحديد والرصاص بأمر المنجمين لتكون حفظا لجُثَّته وجُثَث أهله، ومستودعا للعلوم من آفة الطوفان، واختير لها موضع بقرب النيل في الجانب الغربي . فلما فرغ منها، قال لهم: انظُرُواْ هل يُفْتَحُ منها موضع ؟ فقالوا: يفتح من الجانب الشمالي، وحَقَّقُواْ له الموضع، وأن ذلك يكون لأربعة آلاف دورة للشمس، وأنه يُنْفَقُ في هدمه كذا وكذا. فأمر أن يجعل في الموضع ذَهَبٌ يَزِنُ ما ذكروه، وحَثَّ على الفراغ من الأهرام ،فَفُرِغَ منها في ستين سنة، وكُتِبَ عليها: بنينا هذه الأهرام في ستين سنة ، فليهدمها من يريد في ستمائة سنة، فإن الهدم أهون من البناء .

فلما كان المأمون أراد أن يهدمها، فقال له بعض شيوخ مصر: قبيح بمثلك أن يطلب شيئا لا يناله، فقال : لابد أن أعلم ذلك . ثم أمر ، فَفُتِحَ من الجانب الشمالي لقلة دوام الشمس على العمال. فكانوا يوقدون النار عند الحجر، فإذا احمر، رُشَّ عليه الْخَلُّ، ورُمِيَ بالْمَنْجَنِيقَاتِ حتى فُتِحَتِ الثُّلْمَةُ التي يدخل منها اليوم ، ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا، وبإزاءالنُّقْبِ مَالاً. فأمرهم بوزنه وبإحصاء ما أُنْفِقَ على نقبه، فوجدوهما سواء ، فعجب المامون من ذلك.

قال: ووجدوا طول كل هرم من الهرمين الكبيرين أربع مائة ذراع بالمالكي، وهو ذراع ونصف بذراع اليد. ويقال ، ليس على وجه الأرض أرفع بناء منها . ويُذْكَرُ أن عمقها في الأرض مثل ارتفاعها.

والذي سُطِّرَ من غرائب مصر، وأهرامها، وبرابيها، وغيرها أمر يضيق عنه الوصف. وَما كَدَّرَ مَعِينَهَا، وَبَخَّسَ ثَمِينَهَا، ونَغَّصَ نَعِيمَهَا، وَأَعَلَّ سَلِيمَهَا، إلاَّ أهلها الذين يَنْكِلُ الخَيْرُعن وجوههم وَيَنْكُص، ويَنْمُو الشَّرُّ بهم ولايَنْقص، وبخَيْرَاتِهَا تَغْلُو الدِّيَارُوَتَرْخُص، وخصوصا أهل تلك المدينة المظلمة التي هي من كل الفضائل مُعْدِمَة. أَخْطَاهُمُ النَّوْءُ المحمود، وبُعْدًا لهم كما بَعِدَتْ ثَمُود.

وليس في أرض مصر من ينتهي في كل وصف مذموم منتهاهم ، ولا من يَحُلُّ في القبائح مَحَلَّهُمْ وَمَثْوَاهُمْ. وقد سمعت ممن جال في صعيد مصر وريفها أن أهلها لابأس بهم، وأنهم أشبه حالا من المذكورين بكثير، ومع ما ذكرت فقد كاد المغاربة ينيفون على أهل البلاد كثرة لطيب الأرض وسعتها وكثرة أرزاقها. وربما تقاتلوا مع أهل الموضع الواحد فغلبوهم ، وقد فشا على لسان الصغير منهم والكبير أن مغربيا يملكهم لا محالة ، ويتحدث بهذا عامتهم وخاصتهم ويَأْثُرونَ ذلك عن علماء حُدْثَانِهِمْ. وقديما كانوا في انتظار ذلك، وقد حكاه عنهم ابن جبير في رحلته ، وذكر عنهم أمارات نُصِبَتْ بزعمهم علامة لذلك ، والله بغيبه أعلم ، وهو الملك الأعظم لارب غيره ، ولا يُرْجَى إلا خيره .

بعد أدائه لمناسك الحج وفي طريق عودته إلى المغرب

الوصول إلى القاهرة

ثم وصلنا إلى قاعدة الديار المصرية، وكنت إذ وَرَدْتُهَا مَرِيضًا ، فلم يُمْكِنِّي فيها لقاء أحد. وأنزلنا شيخنا شرف الدين الدمياطي بمدرسته الظاهرية ، في عُلُوٍّ منها مليح . وكان يبعث لي شخصا من فضلاء الأطباء يَتَفَقَّدُني وَيُعَالِجُني، وهو الحكيم الفاضل أبوالطاهر إسماعيل المقدسي . فَتًى حَدَثُ السِّنِّ، رَصِينُ الْعَقْلِ، نَافِذُ الْفَهْمِ. ما رأيتُ أحفظ منهَ للطب، ولا أحسن منه تصرفا

فيه ، ولا أذكر منه لنصوص كتب أبقراط . وما زال يتفقدني مدة من سبعة أيام حتى تَمَاثَلْتُ وَاشْتَهَيْتُ الطَّعَامَ ، والضُّعْفُ

لي مُلاَزِمٌ، فَقَدَّرْتُ أن هواء البلد غير ملائم لي، فسافرت. وما وصلت إلى الإسكندرية حتى تَابَتْ إِلَيَّ قُوَتِي، وَعَادَتْ إِلَيَّ صِحَّتِي.

وصف ما بين القاهرة والإسكندرية



وكان سفرنا منها على غير الطريق الأول، إذ كان الماء قد نَضَبَ عن الريف . فسافرنا على طريقه والعمارة عليه متصلة مدنا وقرى إلى الإسكندرية. ومن أعظم بلادها وأشهرها مدينة «قَلْيُوب»، ومدينة«مليح»، ومدينة«فَرَمَا»، ومدينة «أبيار»، ومدينة« القانة»، ومدينة«دمنهور»ومدنها وقراها أكثر من أن تُعَدَّ. وهي ذات بساتين ونخل وشجر، يَفْتِنُ حُسْنُهَا النَّاظِرِينَ.

ومن أعظم مدنها وقواعدها المشهورة، الموصوفة بالحسن والجمال، مدينة«دِمْيَاطَ». وهي على البحر الرومي. ولم أدخلها لأنها رائغة إلى اليمين كثيرا، عن طريق مصر إلى الإسكندرية.

وكنت مُنْحَفِزًا للسفر، فلم يَتَأَتَّ لي دُخُولُهَا .

ومررنا على قرية «سَنْدَبِيس»وزرنا بها قبر عيسى بن الوليد أخي خالد بن الوليد، رضي الله عنهما. وهو في بيت مغلق على يسار المحراب. ومن مصر إلى هذه القرية مرحلة. ثم وصلنا إلى الإسكندرية، فأنزلنا شيخنا الفقيه زين الدين بن المنير بمدرسة إقرائه، وأَوْلاَنَا مِنْ بِرِّهِ وَ تَأْنِيسِهِ مَا يُكَافِيهِ الله به .



عن رحلة : "الرحلة المغربية"

ابن بطوطة

(1304م- 1377م)

غادر ابن بطوطة مدينة طنجة بنية الحج سنة 1325م. ولم يعد إلى فاس إلا سنة 1349 ، ثم خرج إلى الأندلس وعاد منها سنة 1352 ، ليعود في رحلة سفارية خاصة إلى السودان قبل رجوعه إلى فاس سنة 1354 ، مستقرا يملي ابن على الكاتب الخاص للسلطان المريني أبو عنان ، مجموع أسفاره في جل بلاد العالم التي كانت معروفة في عصره، في قارة افريقيا وآسيا وجزء من قارة أوربا. رحلة انتهى من تقييدها سنة 1356ميلادية .

أبواب الإسكندرية

ولمدينة الاسكندرية أربعة أبواب: باب السدرة وإليه يشرع طريق المغرب، وباب رشيد، وباب البحر، والباب الأخضر، وليس يفتح إلا يوم الجمعة، فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور. ولها المرسى العظيم الشأن ولم أر في مراسي الدنيا مثله إلا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند، ومرسى الكفار بسرادق ببلاد الأتراك ومرسى الزيتون ببلاد الصين، وسيقع ذكرها.

ذكر المنار

قصدت المنار في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدماً. وصفته أنه بناء مربع، ذاهب في الهواء، وبابه مرتفع على الأرض وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه، وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه، فاذا أزيلت لم يكن له سبيل. وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار. وداخل المنار بيوت كثيرة. وعرض الممر بداخله تسعة أشبار، وعرض الحائط عشرة أشبار، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبراً وهو على تل مرتفع. ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد في بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بسور البلد، فلا يمكن التوصل إلى المنار في البر إلا من المدينة وفي هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الإسكندرية. وقصدت المنار عند عودي إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة، فوجدته قد استولى عليه الخراب، بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه. وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع في بناء منار مثله بإزائه، فعاقه الموت من إتمامه.

ذكر عمود السواري

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها، المسمى عندهم بعمود السواري وهو متوسط في غابة نخل. وقد امتاز عن شجراتها سمواً وارتفاعاً. وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ولا يتحقق من وضعه.

قال ابن جزي : أخبرني بعض أشياخي الرحالين أن أحد الرماة بالإسكندرية صعد إلى أعلى ذلك العمود ومعه قوسه وكنانته واستقر هنالك وشاع خبره، فاجتمع الجمع الغفير لمشاهدته، وطال العجب منه، وخفي على الناس وجه احتياله وأظنه كان خائفاً، أو طالب حاجة، فأنتج له فعله الوصول إلى قصده لغرابة ما أتى به. وكيفية احتياله في صعوده أنه رمى بنشابة قد عقد بفوقها خيطاً طويلاً، وعقد بطرف الخيط حبلاً وثيقاً، فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه، ووقعت من الجهة الموازية للرامي، فصار الخيط معترضاً على أعلى العمود، فجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط، فأوثقه من إحدى الجهتين في الأرض، وتعلق به صاعداً من الجهة الأخرى، واستقر بأعلاه وجذب الحبل، واستصحب من احتمله، فلم يهتد الناس لحيلته، وعجبوا من شأنه. وكان أمير الإسكندرية في عهد وصولي إليها يسمى بصلاح الدين وكان فيها أيضاً في ذلك العهد سلطان أفريقية المخلوع، وهو زكرياء أبو يحيى بن أحمد بن أبي حفص المعروف باللحياني. وأمر الملك الناصر بإنزاله بدار السلطنة من إسكندرية، وأجرى له مائة درهم في كل يوم. وكان معه أولاده عبد الواحد ومصري واسكندري وحاجبه أبو زكريا بن يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين. وبالإسكندرية توفي اللحياني المذكور، وولده الاسكندري وبقي المصري بها.



قال ابن جزي : من الغريب ما اتفق من صدق الزجر في اسمي ولدي اللحياني الاسكندري والمصري فمات بها، وعاش المصري دهراً طويلاً بها وهي من بلاد مصر. وتحول عبد الواحد لبلاد الأندلس والمغرب وأفريقية، وتوفي هنالك بجزيرة جربة.

ذكر بعض علماء الإسكندرية

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندي، إمام من أئمة علم اللسان. وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أر في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها. رأيته يوماً قاعداً في صدر محراب، وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب ومنهم فخر الدين بن الريغي وهو أيضاً من القضاة بالإسكندرية فاضل من أهل العلم.

حكاية...

يذكر أن جد القاضي فخر الدين الريغي من أهل ريغة، واشتغل بطلب العلم، ثم رحل إلى الحجاز، فوصل الإسكندرية بالعشي. وهو قليل ذات اليد، فأحب أن لا يدخلها حتى يسمع فالاً حسناً فقعد قريباً من بابها، إلى أن دخل جميع الناس. وجاء وقت سد الباب ولم يبق هنالك سواه فاغتاظ الموكل بالباب من إبطائه، وقال متهكماً : أدخل يا قاضي. فقال: قاض إن شاء الله، ودخل إلى بعض المدارس، ولازم القراءة وسلك طريق الفضلاء، فعظم صيته، وشهر اسمه، وعرف بالزهد والورع، واتصلت أخباره بملك مصر. واتفق أن توفي قاضي الإسكندرية وبها إذ ذاك الجم الغفير من الفقهاء والعلماء، وكلهم متشوف للولاية، وهو من بينهم، لا يتشوف لذلك فبعث إليه السلطان بالتقليد، وهو ظهير القضاء، وأتاه البريد بذلك، فأمر خديمه أن ينادي في الناس من كانت له خصومة فليحضر لها وقعد للفصل بين الناس. فاجتمع الفقهاء وسواهم إلى رجل منهم كانوا يظنون أن القضاء لا يتعداه، وتفاوضوا في مراجعة السلطان في أمره، ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه. وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين فقال لهم: لا تفعلوا ذلك فإني عدلت طالع ولايته، وحققته فظهر لي أنه يحكم أربعين سنة. فأضربوا عما هموا به من المراجعة في شأنه. وكان أمره على ما ظهر للمنجم. وعرف في ولايته بالعدل والنزاهة. ومنهم وجيه الدين الصنهاجي من قضاتها مشتهر بالعلم والفضل. ومنهم شمس الدين ابن بنت التنيسي فاضل شهير الذكر. ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسي من كبار أولياء الله تعالى، يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته. ومنهم الإمام العالم الزاهد الخاشع الورع خليفة صاحب المكاشفات.

كرامة له : أخبرني بعض الثقات من أصحابه قال رأى الشيخ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم. فقال يا خليفة: زرنا فرحل إلى المدينة الشريفة، وأتى المسجد الكريم، فدخل من باب السلام، وحيا المسجد، وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقعد مستنداً إلى بعض سواري المسجد، ووضع رأسه على ركبتيه، وذلك يسمى عند المتصوفة الترفيق. فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة، وآنية فيها لبن، وطبقاً فيه تمر، فأكل هو وأصحابه وانصرف عائداً إلى الإسكندرية ولم يحج تلك السنة.

ومنهم الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج، من كبار الزهاد وأفراد العباد، لقيته أيام مقامي بالإسكندرية وأقمت في ضيافته ثلاثاً.

ذكر كرامة له : دخلت عليه يوماً فقال لي: أراك تحب السياحة والجولان في البلاد. فقلت له: نعم إني أحب ذلك. ولم يكن حينئذ بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين. فقال لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند، وأخي ركن الدين زكرياء بالسند، وأخي برهان الدين بالصين. فإذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام فعجبت من قوله وألقى في روعي التوجه إلى تلك البلاد ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم، وأبلغتهم سلامه. ولما ودعته زودني دراهم لم تزل عندي محوطة. ولم أحتج بعد إلى إنفاقها، إلى أن سلبها مني كفار الهنود، فيما سلبوه لي في البحر. ومنهم الشيخ ياقوت الحبشي، من أفراد الرجال. وهو تلميذ أبي العباس المرسي. وأبو العباس المرسي تلميذ ولي الله تعالى، أبي الحسن الشاذلي الشهير ذي الكرامات الجليلة والمقامات العالية.

كرامة لأبي الحسن الشاذلي: أخبرني الشيخ ياقوت عن شيخه أبي العباس المرسي أن أبا الحسن كان يحج في كل سنة، ويجعل طريقه على صعيد مصر، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده إلى انقضاء الحج، ويزور القبر الشريف، ويعود على الدرب الكبير إلى بلده. فلما كان في بعض السنين، وهي آخر سنة خرج فيها، قال لخديمه: استصحب فأساً وقفة وحنوطاً، وما يجهز به الميت. فقال له الخديم: ولم ذا يا سيدي ؟ فقال له: في حميثرا سوف ترى. وحميثرا في صعيد مصر في صحراء عيذاب، وبها عين ماء زعاق. وهي كثيرة الضباع. فلما بلغا حميثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن، وصلى ركعتين، وقبضه الله عز وجل في آخر سجدة من صلاته، ودفن هناك. وقد زرت قبره وعليه تبرية مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلاً بالحسن بن علي رضي الله عنه[. . .].

حكاية...

ومما جرى بمدينة الإسكندرية سنة سبع وعشرين. وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله، أنه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة. وكان والي الإسكندرية رجلاً يعرف بالكركي. فذهب إلى حماية الروم، وأمر المسلمين فحضروا بين فصيلي باب المدينة. وأغلق دونهم الأبواب نكالاً لهم. فأنكر الناس ذلك وأعظموه، وكسروا الباب، وثاروا إلى منزل الوالي، فتحصن منهم، وقاتلهم من أعلاه، وطير الحمام بالخبر إلى الملك الناصر، فبعث أميراً يعرف بالجمالي، ثم أتبعه أميراً يعرف بطوغان، جباراً قاسي القلب متهماً في دينه. يقال: إنه كان يعبد الشمس. فدخلا إسكندرية، وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها، كأولاد الكويك وسواهم. وأخذ منهم الأموال الطائلة وجعلت في عنق عماد الدين القاضي جامعة حديد. ثم أن الأميرين

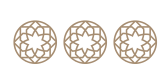
قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلاً. وجعلوا كل رجل قطعتين، وصلبوهم صفين وذلك في يوم جمعة وخرج الناس على عادتهم من الصلاة لزيارة القبور وشاهدوا مصارع القوم. فعظمت حسرتهم وتضاعفت أحزانهم. وكان في جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر يعرف بابن رواحة. وكان له قاعة معدة للسلاح. فمتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الأسلحة. وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير من أهلها. فزل لسانه وقال للأميرين: أنا أضمن هذه المدينة وكل ما يحدث فيها أطالب به، وأحوط على السلطان مرتبات العساكر والرجال. فأنكر الأميران قوله، وقالا: إنما تريد الثورة على السلطان وقتلاه. وإنما كان قصده رحمه الله إظهار النصح والخدمة للسلطان فكان فيه حتفه. وكنت سمعت أيام إقامتي بالإسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من الكون أبي عبد الله المرشدي، وهو من كبار الأولياء المكاشفين وأنه منقطع بمنية بني مرشد له هنالك زاوية، هو منفرد فيها، لا خديم له ولا صاحب. ويقصده الأمراء والوزراء، وتأتيه الوفود من طوائف الناس في كل يوم، فيطعمهم الطعام. وكل واحد منهم ينوي أن يأكل عنده طعاماً أو فاكهة أو حلوى فيأتي لكل واحد بما نواه، وربما كان ذلك في غير إبانه. ويأتيه الفقهاء لطلب الخطبة، فيولي ويعزل، وذلك كله أمر مستفيض متواتر. وقد قصده الملك الناصر مرات بموضعه. فخرجتُ من مدينة الإسكندرية قاصداً هذا الشيخ نفعنا الله به، ووصلت قرية تَروَجَه ، وهي على مسيرة نصف يوم من مدينة الإسكندرية. وهي قرية كبيرة بها قاض ووالٍ وناظر، ولأهلها مكارم أخلاق ومروءة. صحبت قاضيها صفي الدين وخطيبها فخر الدين وفاضلاً من أهلها يسمى بمبارك، وينعت بزين الدين ونزلت بها على رجل من العباد الفضلاء كبير القدر يسمى عبد الوهاب. وأضافني ناظرها زين الدين بن الواعظ وسألني عن بلدي وعن مجباه، فأخبرته أن مجباه نحو اثني عشر ألفاً من دينار الذهب. فعجب وقال لي: رأيت هذه القرية فإن مجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهباً. وإنما عظمت مَجابي ديار مصر لأن جميع أملاكها لبيت المال. ثم خرجت من هذه القرية، فوصلت



مدينة دمنهور، وهي مدينة كبيرة، جبايتها كثيرة، ومحاسنها أثيرة، أم مدن البحيرة بأسرها، وقطبها الذي عليه مدار أمرها، وكان قاضيها في ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية، وتولى قضاء الإسكندرية لما عزل عنها عماد الدين الكندي بسبب الواقعة التي قصصناها . وأخبرني الثقة أن ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين ألف درهم وصرفها من دنانير الذهب ألف دينار على ولاية القضاء بالإسكندرية. ثم رحلنا إلى مدينة فوا. وهذه المدينة عجيبة المنظر، حسنة المخبر، بها البساتين الكثيرة، والفوائد الخطيرة الأثيرة، . بها قبر الشيخ الولي أبي النجاة الشهير الاسم، خبير تلك البلاد، وزاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي الذي قصدته بمقربة من المدينة. يفصل بينها خليج هنالك. فلما وصلت، تعديتها، ووصلت إلى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر، وسلمت عليه، ووجدت عنده الأمير سلف الدين يلملك، وهو من الخاصكية. وأول اسمه ياء وآخر الحروف كاف، ولامه الأولى مسكنة، والثانية مفتوحة، مثل الميم، والعامة تقول فيه الملك فيخطئون. ونزل هذا الأمير بعسكره خارج الزاوية ولما دخلت على الشيخ ،رحمه الله، قام إليّ وعانقني، وأحضر طعاماً فواكلني. وكانت عليه جبة صوف سوداء فلما حضرت صلاة العصر قدمني للصلاة إماماً، وكذلك لكل ما حضرني عنده حين إقامتي معه من الصلاة. ولما أردت النوم قال لي: اصعد إلى سطح الزاوية فَنَمْ هنالك وذلك أوان القيظ. فقلت للأمير: بسم الله. فقال لي: وما منا إلا له مقام معلوم. فصعدت السطح، فوجدتُ به حصيراً ونطعاً وآنية للوضوء، وجرة ماء وقدحاً للشرب فنمت هنالك.

كرامة لهذا الشيخ : رأيت ليلتي تلك، وأنا نائم بسطح الزاوية، كأني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة. يتيامن ثم يشرق، ثم يذهب في ناحية الجنوب، ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق، وينزل في أرض مظلمة خضراء، ويتركني بها. فعجبت من هذه الرؤيا، وقلت في نفسي: إن كاشفني الشيخ برؤيايَ فهو كما يحكى عنه. فلما غدوت لصلاة الصبح قدمني إماماً لها. ثم أتاه الأمير يلملك فوادعه وانصرف. ووادعه من كان هناك من الزوار وانصرفوا أجمعين من بعد أن زودهم كعيكات صغاراً. ثم سبحت سبحة الضحى. ودعاني وكاشفني برؤياي، فقصصتها عليه فقال سوف تحج وتزور النبي صلى الله عليه وسلم، وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك، وتبقى بها مدة طويلة، وستلقى به دلشاد الهندي، ويخلصك ممن شدة تقع فيها. ثم زودني كعيكات ودراهم ووادعته وانصرفت. ومنذ فارقته لم ألق في أسفاري إلا خيراً، وظهرت علي بركاته. ثم لم ألق فيمن لقيته مثله إلا الولي سيدي محمداً الموله بأرض الهند. ثم رحلنا إلى مدينة النحرارية، وهي رحبة الفناء، حديثة البناء، أسواقها حسنة الرؤية، وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدي، وولده في خدمة ملك الهند، وسنذكره. وقاضيها صدر الدين سليمان المالكي من كبار المالكية سفر عن الملك الناصر إلى العراق، وولي قضاء البلاد الغربية، وله

هيئة جميلة وصورة حسنة. وخطيبها شرف الدين السخاوي من الصالحين. ورحلت منها إلى مدينة أبيار، وهي قديمة البناء، أرجة الأرجاء كثيرة المساجد، ذات حسن زائد ، وهي بمقربة من النحرارية. ويفصل بينها النيل وتصنع بأبيار ثياب حسان تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها. ومن الغريب قرب النحرارية منها. والثياب التي تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند أهلها. ولقيت بأبيار قاضيها عز الدين المليجي الشافعي، وهو كريم الشمائل كبير القدر. حضرت عنده مرة يوم الركبة، وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان. وعادتهم فيه أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي، ويقف على الباب نقيب المتعممين، وهو ذو شارة وهيئة حسنة. فإذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه، تلقاه ذلك النقيب، ومشى بين يديه قائلاً: بسم الله، سيدنا فلان الدين فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب في موضع يليق به. فإذا تكاملوا هنالك، ركب القاضي وركب من معه أجمعون، وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مرتقب الهلال عندهم، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش، فينزل فيه القاضي ومن معه فيرتقبون الهلال، ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس. ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع، ويصل الناس مع القاضي إلى داره، ثم ينصرفون هكذا فعلهم في كل سنة. ثم توجهت إلى مدينة المحلة الكبيرة وهي جليلة المقدار، حسنة الآثار، كثير أهلها، جامع بالمحاسن شملها، واسمها بيّن. ولهذه المدينة قاضي القضاة ووالي الولاة ،وكان قاضي قضاتها أيام وصولي اليها في فراش المرض ببستان له على مسافة فرسخين من البلد، وهو عز الدين بن الأشمرين، فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبي القاسم ابن بنون المالكي التونسي، وشرف الدين الدميري قاضي محلة منوف. وأقمنا عنده يوماً، وسمعت منه، وقد جرى ذكر الصالحين أن على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد البرلس ونسترو، وهي بلاد الصالحين، وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات. فقصدت تلك البلاد، ونزلت بزاوية الشيخ المذكور وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار والطير البحري والحوت المعروف بالبوري ومدينتهم تسمى ملطين ، وهي على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تنيس . ونسترو بمقربة منها. نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوي من الصالحين، وكانت تنيس بلداً عظيماً شهيراً، وهي الآن خراب [. . .].



ثم سافرت في أرض رملة إلى مدينة دمياط. وهي مدينة فسيحة الأقطار، متنوعة الثمار، عجيبة الترتيب، آخذة من كل حسن بنصيب والناس يضبطون اسمها بإعجام الذال. وكذلك ضبطه الإمام أبو محمد عبد الله بن علي الرشاطي. وكان شرف الدين الإمام العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي إمام المحدّثين يضبطها بإهمال الدال، ويتبع ذلك بأن

يقول خلاف الرشاطي وغيره. وهو أعرف بضبط اسم بلده. ومدينة دمياط على شاطىء النيل، وأهل الدور الموالية يستقون منه الماء بالدلاء وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل. وشجر الموز بها كثير، يحمل ثمره إلى مصر في المراكب. وغنمها سائمة هملاً بالليل والنهار. ولهذا يقال في دمياط: سورها حلوى، وكلابها غنم. وإذا دخلها أحد، لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الوالي فمن كان من الناس معتبراً، طبع له في قطعة كاغد، يستظهر به لحراس بابها. وغيرهم يطبع على ذراعه، فيستظهر به. والطير البحري بهذه المدينة كثير، متناهي السمن. وبها الألبان الجاموسية التي لا مثل لها في عذوبة الطعم وطيب المذاق. وبها الحوت البوري يحمل منها إلى الشام وبلاد الروم ومصر. وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل تسمى البرزخ. بها مسجد وزاوية، لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل، وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الأخيار. قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكراً. ودمياط هذه حديثة البناء والمدينة القديمة هي التي خربها الإفرنج على عهد الملك الصالح. وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوي، قدوة الطائفة المعروفة بالقلندرية ، وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم. ويسكن الزاوية في هذا العهد الشيخ فتح التكروري.

حكاية...

يذكر أن السبب الداعي للشيخ جمال الدين الساوي إلى حلق لحيته وحاجبيه أنه كان جميل الصورة حسن الوجه فعلقت به امرأة من أهل ساوة، وكانت تراسله وتعارضه في الطرق وتدعوه لنفسها، وهو يمتنع ويتهاون، فلما أعياها أمره دست له عجوزاً تصدت له إزاء دار على طريقه إلى المسجد، وبيدها كتاب مختوم. فلما مر بها قالت له: يا سيدي أتحسن القراءة ؟ قال: نعم. قالت له: الكتاب وجهه إليّ ولدي، وأحب أن تقرأه علي. فقال لها، نعم. فلما فتح الكتاب، قالت له: يا سيدي إن لولدي زوجة، وهي بأسطوان الدار، فلو تفضلت بقراءته بين بابي الدار بحيث تسمعها. فأجابها لذلك. فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب، وأخرجت المرأة حواريّها فتعلقن به. وأدخلنه إلى داخل الدار. وراودته المرأة عن نفسه، فلما رأى أن لا خلاص له، قال لها: إني حيث تريدين. فأريني بيت الخلاء. فأرته إياه. فأدخل معه الماء. وكانت عنده موسى جديدة، فحلق لحيته وحاجبيه، وخرج عليها، فاستقبحت هيئته، واستنكرت فعله، وأمرت بإخراجه وعصمه الله بذلك، فبقي على هيئته فيما بعد، وصار كل من يسلك طريقته أن يحلق رأسه ولحيته و حاجبيه.

كرامة لهذا الشيخ : يذكر أنه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها. وكان بها قاض يعرف بابن العميد. فخرج يوماً إلى جنازة بعض الأعيان، فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة فقال له: أنت الشيخ المبتدع. فقال له: وأنت القاضي الجاهل، تمر بدابتك بين القبور، وتعلم أن حرمة الإنسان ميتاً كحرمته حياً. فقال له القاضي: وأعظم من ذلك حلقك للحيتك. فقال له: إياي تعنيٍ. وزعق الشيخ، ثم رفع رأسه، فإذا هو ذو لحية سوداء، عظيمة. فعجب القاضي ومن معه، ونزل إليه عن بغلته. ثم زعق ثانيا فإذا هو ذو لحية بيضاء حسنة، ثم زعق ثالثاً ورفع رأسه. فإذا هو بلا لحية كهيئته الأولى فقبل القاضي يده، وتتلمذ له، وبني له الزاوية الحسنة ، وصحبه أيام حياته حتى مات الشيخ. فدفن بزاويته. ولما حضرت القاضي وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية، حتى يكون كل داخل إلى زيارة الشيخ يطأ قبره. وبخارج دمياط المزار المعروف بشطا،وهو ظاهر البركة، يقصده أهل الديار المصرية. وله أيام في السنة معلومة لذلك. وبخارجها أيضاً بين بساتينها موضع يعرف بالمنية، فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان. قصدت زاويته وبت عنده. وكان بدمياط أيام إقامتي بها والٍ يعرف بالمحسني من ذوي الإحسان والفضل. بنى مدرسة على شاطىء النيل بها. كان نزولي في تلك الأيام. وتأكدت بيني وبينه مودة. ثم سافرت إلى مدينة فارسكور، وهي مدينة على ساحل النيل. ونزلت بخارجها. ولحقني هنالك فارس وجّهه إليّ الأمير المحسني، فقال لي: إن الأمير سأل عنك، وعرف بسيرتك، فبعث إليك بهذه النفقة. ودفع إليّ جملة دراهم، جزاه الله خيراً. ثم سافرت إلى مدينة أشمون الرمان، ونسبت إلى الرمان لكثرته بها. ومنها يحمل إلى مصر. وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خلج النيل ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها فإذا كان العصر رفعت تلك الخشب، وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة. وبهذا البلد قاضي القضاة ووالي الولاة. ثم سافرت عنها إلى مدينة سمنود، وهي على شاطئ النيل، كثيرة المراكب حسنة الأسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ. ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعداً إلى مصر، ما بين مدائن وقرى منتظمة، المتصل بعضها ببعض. ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد. لأنه مهما أراد النزول بالشاطئ، نزل الوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك. والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد. ثم وصلت إلى مدينة مصر هي أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة والبلاد



الأريضة، المتناهية في كثرة العمارة المتناهية بالحسن والنضارة، ومجمع الوارد والصادر، ومحل رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها. شبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد. قهرت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوكها من نواصي العرب والعجم. ولها خصوصية النيل الذي أجلّ خطرها، وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها، وأرضها مسيرة شهر لمجدّ السير. كريمة التربة، مؤنسة لذوي الغربة [...].

ويقال : إن بمصر من السقائين على الجمال اثني عشر ألف سقاء، وأن بها ثلاثين ألف مكار، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان والرعية، تمر صاعدة إلى الصعيد، ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق. وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة، وهو مكان النزهة والتفرج، وبه البساتين الكثيرة الحسنة. وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو. شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده. فزين كل أهل سوق سوقهم، وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلي وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياماً[...].

ذكر يوم المحمل

وهو يوم دوران الجمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الأربعة، ووكيل بيت المال والمحتسب وقد ذكرنا جميعهم، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة، ويقصدون جميعاً باب القلعة، دار الملك الناصر، فيخرج إليهم المحل على جمل، وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة، ومعه عسكره والسقاؤون على جمالهم، ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء، ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينة القاهرة ومصر، والحداة يحدون أمامهم، ويكون ذلك في رجب فعند ذلك تهيج العزمات، وتنبعث الأشواق، وتتحرك البواعيث، ويلقي الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده، فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد. ثم كان سفري من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف. فبت ليلة خروجي بالرباط الذي بناه الصاحب تا ج الدين بن حناء بدير الطين، وهو رباط عظيم بناء على مفاخر عظيمة، وآثار كريمة، أودعها فيه وهي قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والميل الذي كان يكتحل به، والدرفش وهو الأشفا الذي كان يخصف به نعله، ومصحف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي بخط يده رضي الله عنه. ويقال: إن الصاحب اشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة ألف درهم، وبنى الرباط، وجعل فيه الطعام للوارد والصادر، والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة، نفعه الله تعالى بقصده المبارك. ثم خرجت من الرباط المذكور، ومررت

بمنية القائد، وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل. ثم سرت منها إلى مدينة بوش ،وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتاناً، ومنها يجلب إلى سائر الدنيا المصرية، وإلى إفريقية. ثم سافرت منها، فوصلت إلى مدينة دلاص ،وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضاً، كمثل التي ذكرناها قبلها. ويحمل أيضاً منها إلى ديار مصر وإفريقية. ثم سافرت منها إلى مدينة ببا " وضبط اسمها بباءين موحدتين أولاهما مكسورة ". ثم سافرت منها إلى مدينة البهنسا، وهي مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة، وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة. وممن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين، وهو كريم النفس فاضل. ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمي، ونزلت عنده وأضافني. ثم سافرت منها إلى مدينة منية ابن خصيب ، وهي مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطئ النيل. وحق حقيق لها على بلاد الصعيد التفضيل. بها المارس والمشاهد والزوايا والمساجد وكانت في القديم منية عامل مصر الخصيب .

حكاية...

يذكر أن أحد الخلفاء من بني العباس رضي الله عنهم غضب على أهل مصر. فآلى أن يولي عليهم أحقر عبيده، وأصغرهم شأناً، قصداً لإرذالهم والتنكيل بهم وكان خصيب أحقرهم إذ كان يتولى تسخين الحمّام فخلع عليه، وأمّره على مصر، وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء، ويقصدهم بالإذاية، حسبما هو المعهود ممن ولي عن غير عهد بالعز. فلما استقر خصيب بمصر، سار في أهلها أحسن سيرة. وشهر بالكرم والإيثار. فكان أقرب الخلفاء وسواهم يقصدونه، فيجزل العطاء لهم، ويعودون إلى بغداد شاكرين لما أولاهم. وأن الخليفة افتقد بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه، فسأله عن مغيبه، فأخبره أنه قصد خصيباً. وذكر له ما أعطاه خصيب. وكان عطاءً جزيلاً. فغضب الخليفة، وأمر بسمل عيني خصيب، وإخراجه من مصر إلى بغداد، وأن يطرح في أسواقها. فلما ورد الأمر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخوله منزله وكانت بيده ياقوته عظيمة الشأن فخبأها عنده، وخاطها في ثوب له ليلاً وسملت عيناه، وطرح في أسواق بغداد. فمر به بعض الشعراء فقال له يا خصيب: « إني كنت قصدتك من بغداد إلى مصر مادحاً لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها، وأحب أن تسمعها. فقال: كيف بسماعها وأنا على ما تراه ؟ فقال: إنما قصدي سماعك لها. وأما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت جزاك الله خيراً قال فافعل فأنشد:

أنتَ الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر

فلما أتى على آخرها قال له : افتق هذه الخياطة، ففعل ذلك. فقال له: خذ الياقوتة. فأبى، فأقسم عليه أن يأخذها. فأخذها وذهب بها إلى سوق الجوهريين. فلما عرضها عليهم قالوا له إن هذه لا تصلح إلا للخليفة. فرفعوا أمرها إلى الخليفة، فأمر الخليفة بإحضار الشاعر واستفهمه عن شأن الياقوتة، فأخبره بخبرها. فتأسف على ما فعله بخصيب وأمر بمثوله بين يديه، وأجزل له العطاء، وحكّمه فيما يريد. فرغب أن يعطيه هذه المنية، ففعل ذلك، وسكنها خصيب إلى أن توفي وأورثها عقبه إلى أن انقرضوا. وكان قاضي هذه المنية أيام دخولي إليها فخر الدين النويري المالكي، وواليها شمس الدين أمير خير كريم. دخلت يوماً الحمام بهذه البلدة، فرأيت الناس بها لا يستترون. فعظم ذلك علي وأتيته، فأعلمته بذلك. فأمرني ألا أبرح، وأمر بإحضار المكترين للحمامات، وكتبت عليهم العقود، أنه متى دخل أحد الحمام دون مئزر فإنهم يؤاخذون على ذلك. واشتد عليهم أعظم الاشتداد. ثم انصرفت عنه وسافرت من منية ابن خصيب إلى مدينة منلوي وهي صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل . وقاضيها الفقيه شرف الدين الدميري الشافعي. وكبارها قوم يعرفون ببني فضيل بنى أحدهم جامعاً أنفق فيه صميم ماله. وبهذه المدينة إحدى عشرة معصرة للسكر - ومن عوائدهم أنهم لا يمنعون فقيراً من دخول معصرة منها فيأتي الفقير بالخبزة الحارة، فيطرحها في القدر التي يطبخ السكر فيها، ثم يخرجها، وقد امتلأت سكراً فينصرف بها. وسافرت من منلوي المذكورة إلى مدينة منفلوط وهي مدينة حسن رواؤها، مؤنق بناؤها على ضفة النيل، شهيرة البركة .

حكاية...

أخبرني أهل هذه المدينة أن الملك الناصر رحمه الله، أمر بعمل منبر عظيم، محكم الصنعة بديع الإنشاء، برسم المسجد الحرام، زاده الله شرفاً وتعظيماً. فلما تم عمله، أمر أن يصعد به في النيل ليجاز إلى بحر جدة، ثم إلى مكة شرفها الله، فلما وصل المركب الذي احتمله إلى منفلوط، وحاذى مسجدها الجامع وقف، وامتنع من الجري مع مساعدة الريح. فعجب الناس من شأنه أشد العجب، وأقاموا أياماً لا ينهض بهم المركب. فكتبوا بخبره إلى الملك الناصر رحمه الله، فأمر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط، ففعل ذلك. وقد عاينته بها، ويصنع في هذه المدينة شبه العسل، يستخرجونه من القمح ويسمونه النيدا. يباع بأسواق مصر. وسافرت من هذه المدينة إلى مدينة أسيوط. وهي مدينة رفيعة أسواقها بديعة وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب « بحاصل ما ثم »، لقب اشتهر به وأصله أن القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الأوقاف والصدقات لأبناء



السبيل، فإذا أتى فقير لمدينة من المدن قصد القاضي بها، فيعطيه ما قدر له. فكان القاضي إذا أتاه الفقير يقول له "حاصل ما ثم" أي لم يبق من المال الحاصل شيء فلقب بذلك ولزمه. وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين بن الصباغ، أضافني بزاويته. وسافرت منها إلى مدينة أخميم، وهي مدينة عظيمة أصيلة البنيان عجيبة الشان، بها البربي المعروف باسمه، وهو مبني بالحجارة، في داخله نقوش وكتابة للأوائل، لا تفهم في هذا العهد، وصور الأفلاك والكواكب. ويزعمون أنها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب. وبها صور الحيوانات وسواها. وعند الناس في هذه الصور أكاذيب لا يعرج عليها. وكان بأخميم رجلٌ يعرف بالخطيب، أمر على هدم بعض هذه البرابي، وابنتى بحجارتها مدرسة. وهو رجل موسر معروف باليسار. ويزعم حساده أنه استفاد ما بيده من المال من ملازمته لهذه البرابي. ونزلت من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبي العباس بن عبد الظاهر، وبها تربة جده عبد الظاهر. وله من الأخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين. ومن عادتهم أن يجتمعوا جميعاً بعد صلاة الجمعة، ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده، وقاضي المدينة الفقيه مخلص، وسائر أهلها، فيجتمعون للقرآن، ويذكرون الله إلى صلاة العصر. فإذا صلوها، قرأوا سورة الكهف، ثم انصرفوا. وسافرت من أخميم إلى مدينة " هو": مدينة كبيرة بساحل النيل . نزلت منها بمدرسة تقيِ الدين ابن السراج. ورأيتهم يقرأون بها في كل يوم بعد صلاة الصبح حزباً من القرآن، ثم يقرأون أوراد الشيخ أبي الحسن الشاذلي وحزب البحر. وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسني من كبار الصالحين. كرامة له: دخلت إلى هذا الشريف متبركاً برؤيته والسلام عليه، فسألني عن قصدي، فأخبرته أني أريد البيت الحرام على طريق جدة. فقال لي: لا يحصل لك هذا في هذا الوقت، فارجع. وإنما تحج أول حجة على الدرب الشامي. فانصرفت عنه، ولم أعمل على كلامه. ومضيت في طريقي حتى وصلت إلى عيذاب. فلم يتمكن لي السفر،

فعدت راجعاً إلى مصر ثم إلى الشام. وكان طريقي في أول حجاتي على الدرب الشامي، حسبما أخبرني الشريف نفع الله به. ثم سافرت إلى مدينة قنا، وهي صغيرة حسنة الأسواق. وبها قبر الشريف الصالح الولي صاحب البراهين العجيبة والكرامات الشهيرة عبد الرحيم القناوي رحمة الله عليه. ورأيت بالمدرسة السيفية حفيده شهاب الدين أحمد.

وسافرت من هذا البلد إلى مدينة . مدينة عظيمة لها خيرات عميمة، بساتينها مورقة، وأسواقها مونقة، ولها المساجد الكثيرة، والمدارسة الأثيرة، وهي منزل ولاة الصعيد. وبخارجها زاوية الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار، وزاوية الأفرم ، وبها اجتماع الفقراء المتجردين في شهر رمضان من كل سنة، ومن علمائها القاضي جمال الدين بن السديد، والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد ،أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق في ذلك، لم أر من يماثله إلا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبري، وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين المشاطي، وسيقع ذكرهما، ومنهم الفقيه بهاء الدين عبد العزيز المدرس بمدرسة المالكية، ومنهم الفقيه برهان الدين إبراهيم الأندلسي، له زاوية عالية. ثم سافرت إلى مدينة الأقصر ، وهي صغيرة حسنة، وبها قبر الصالح العابد أبي الحجاج الأقصري. وعليه زاوية، وسافرت منها إلى مدينة أرمنت ، وهي صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل. أضافني قاضيها، وأنسيت اسمه. ثم سافرت منها إلى مدينة أسنا ،مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع، لها أسواق حسان، وبساتين ذات أفنان. قاضيها قاضي القضاة شهاب الدين بن مسكين. أضافني وأكرمني، وكتب إلى نوابه بإكرامي. وبها من الفضلاء الشيخ صالح نور الدين علي، والشيخ الصالح عبد الواحد المكناسي، وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص. ثم سافرت منها إلى مدينة أدفو . وبينها وبين مدينة أسنا مسيرة يوم وليلة في صحراء ثم جزنا النيل من مدينة أدفو إلى مدينة العطواني، ومنها اكترينا الجمال. وسافرنا من طائفة من العرب تعرف بدغيم في صحراء لا عمارة بها إلا أنها آمنة السيل. وفي بعض منازلها نزلنا حميثرا حيث قبر ولي الله أبي الحسن الشاذلي، وقد ذكرنا كرامته في أخباره أنه يموت بها. وأرضها كثيرة الضباع. ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع. ولقد قصدت رحلي ضبع منها فمزقت عدلاً كان به، واجتزت منه جراب تمر، وذهبت به.

فوجدناه لما أصبحنا ممزقاً مأكولاً معظم ما كان فيه. ثم لما سرنا خمسة عشر يوماً وصلنا إلى مدينة عيذاب، وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن، ويحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر. وأهلها البجاة ، وهم سود الألوان يلتحفون بملاحف

صفراء، ويشدون على رؤوسهم عصائب يكون عرض العصابة أصبعاً وهم لا يورثون البنات. وطعامهم ألبان الإبل ويركبون المهاري، ويسمونها الصهب. وثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها لملك البجاة، وهو يعرف بالحدربي ،وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلاني شهير البركة، رأيته وتبركت به. وبها الشيخ الصالح موسى والشيخ المسن محمد المراكشي. زعم أنه ابن المرتضى ملك مراكش، وأن سنه خمس وتسعون سنة. ولما وصلنا إلى عيذاب وجدنا الحدربي سلطان البجاة يحارب الأتراك، وقد خرق المراكب، وهرب الترك أمامه فتعذر سفرنا في البحر. فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد، وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم إلى صعيد مصر، فوصلنا إلى مدينة قوص التي تقدم ذكرها، وانحدرنا منها في النيل، وكان أوان مده، فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص إلى مصر، فبت ليلة واحدة، وقصدت بلاد الشام. وذلك في منتصف شعبان سنة ست وعشرين فوصلت إلى مدينة بلبيس، وهي مدينة كبيرة، ذات بساتين، كثيرة، ولم ألق بها من يجب ذكره.

عن رحلة : "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"

خرج أبو البقاء البلوي من قنتورية بإقليم المرية / الأندلس في رحلة ستدوم أربع سنوات (1337– 1340) وقد كان وصوله إلى القاهرة في عامه الأول سنة 1337.

الفرج بعد الشدة

وهبت ريح سرنا بها حتى أنعم الله سبحانه وظهر منار الإسكندرية فأعلم الناس بذلك، فضجوا سرورا بالدعاء والبكاء، وأعلنوا بالحمد والشكر لله تعالى والثناء، وكادوا أن يقضي عليهم ذلك الأمل ومن فرح النفس ما يقتل.

خفقت قلوبهم سرورا بعدما باتوا بأفئدة يراع خوانق

فما رأيتُ قبلها بشارة أحلى في النفوس، أوقع في القلوب، ولا أعظم سرورا من سرور الخلق بها في تلك الساعة، وما ظنك بساعة أعلنت بالكرم والجود، وأعلمت بالخروج من العدم إلى الوجود، وفيها نطق لسان الشكر بما تيسير على الفكر[...].

فوصلنا وجفن الظلام قد انطلق على عين الشمس، ومضى اليوم مضي الأمس، ودخلنا المرسى بقرب المنار، في ليلة الجمعة الثالث عشر لجمادى الأخرى من عام سبعة وثلاثين المذكور، ولما بدأ من الفجر سفور، ونثر الصبح كافور، وركبت إلينا زوارق المدينة، وخرج الناس لمشاهدتنا في أحسن الزينة، نزلنا البر لا نلوي على جريج ولا نصبر ريثما يسكن البحر من ماء وريح، وأقبلنا الساحل قاصدين تائبين من ركوب البحر أبد الآبدين فلما وطأنا الرمل وسلمنا على الأخوان احتضنا بالشرط والأهوان، وحملنا بأجمعنا إلى الديوان هناك شاهدنا الحساب وأرينا العذاب، وملئوا منا البيوت والرحاب ثم أمرت اليد على القليل الكثير، والحقير والنقير، والدفتر والقطمير، والرفيع الوضيع والغني والفقير، وفتشت الأوساط، وعمّ الزحام والاختلاط، وكثر الهياط والمياط، حتى خرج المخزون والموزن، وبرز المعكوم والمختوم، وعند الله تجمع الخصوم، فأخذ من كل عشرة دنانير ديناران ومن كل عشرة دراهم درهمان، ظلما وعدوانا وجورا وطغيانا فاستشعرت الأسف، ونسيت كل رزء سلف، وودت للنزر الحاضر لو كان مع الشيء الآخر ذهب وتلف[...].

فانتظم الشمل بقصر الموضوع، بديع المجموع، يعجب بقطعه المتجاورات، وحدائق فيها من كل الثمرات ونخل كالكتائب قابلت الكتائب، والعذارى أرخين الذوائب، فيها قنوان من البسر وألوان تعدى على العسر، وتهدى إلى اليسر فلم أر مدينة أحسن منها وضعا ولا أبدع ربعا، ولا أسع مسالك ولا أعلى مباني ولا أسمى مراقى، ولا أجمل مراسم، ولا أوضح معالم، ولا أملح أزقة، ولا أعجب رونقا ورقة، ولا أحسن تفصيلا وجملة [...].

فكأن محاسن الدنيا فيها مفروشة، وصورة الجنة فيها منقوشة، كوكبها يقظان، وجوها عريان، وحصاها جوهر ونسيمها عطر، وترابها مسك أذفر، ويومها غداة، وليلها سحر، وكفاها أن ليلها كالنهار في تصرف العباد، وإعادة مسائها كصباحها، وهو غير المعتاد، وهل هي الاذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، ذكر المفسرون عن أبى ابن كعب في قوله تعالى أرم ذات العماد: إنها الإسكندرية، فهي من أعجب البلدان، وفيها بنيان عجيب، ذكر صاحب الجغرافيا أنها بنيت في ثلاثمائة سنة، وأن أهلها مكثوا سبعين سنة ألا يمشون فيها بالنهار إلا معصبين الأعين بخرق سود، خوفا على أبصارهم من شدة بياضها، وعلى منارها سرطان من رخام، والمنار على أربعة أساطين، وطوله ثلاثمائة ذراع وحيطان المدينة وسورها من رخام، فيها قبة كانت لفرعون، وفيها قصر سليمان قد نهدم وبقيت آثاره، وبها أسطوانة تستدير الدهر كله، وكان في القديم على منارها مرآة كبيرة، صنعها الحكماء، يتطلع بها على القسطنطينية وبلاد الروم حتى احتيل في إنزالها، فلم يستطع أحد على صرفها بهذا انتهى، ومن عجيب صنعها أن بناءها تحت الأرض كبنائها فوقها، بل أعتق وأمتن، لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها ويتخلل جميع أزقتها تحت الأرض، فتتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضا، وعاينتُ فيها من سوارى الرخام وألواحه كثرة وعلوا واسعا وحسنا ما لا يتخيل بالوهم، ولقد نلقي فيها سوارى يقصد





الجو بها لا يدري معناها، ولا لما كان أصل وضعها، ويذكر انه كان عليها في الزمن القديم مبان الفلاسفة ولأهل الرياسة والله اعلم، ومن أعجبها وأعظمها عمود السوارى، له قاعدة مربعة هو عليها، عددت في أحد جوانبها نيفا على أحد عشر شبرا، وطالعت في بعض التآليف أنه أعظم عمود على وجه الأرض واقف على كنز من الكنوز، وأن طوله تسع وأربعون ذارعا بالذراع الكبيرة التي فيها ذراعان، وأنه لا يتزحزح عن موضعه ولو تساقطت عليه الجبال الشم، ومن عجائب الإسكندرية أيضا المنار، وهو بخارجها قد صعد كالبرج الأعظم في عنان السماء أساسه كله معقود بالرصاص، وبنيانه بالحجر المنجور الجافي يزاحم السماء سموا وارتفعا قد وضعه الله تعالى على يد من سخره لذلك آية للمتوسمين، وهداية للمسافرين يهتدون به في البحر إلى بر الإسكندرية، ويظهر على أزيد من سبعين ميلا، عرض أحد جوانبه الأربع ينيف على خمسين باعا، ويذكر أن في طوله أزيد من مائة وخمسين قامة، وألفيت في بعض التآليف المعتمدة ما نصه: وذكر من عبد الله بن عمرو ابن العاص أنه قال عجائب الدنيا أربعة : مرآة منار الإسكندرية كان الناس يجلسون تحتها فيرون من القسطنطينية وبينهما عرض البحر. وفرس من نحاس بأرض الأندلس باسط يديه مقابل بكفييه أي، ليس خلفي مسلك فلا مسلك فلا يطأ أحد تلك الأرض إلا ابتلعته النمل. ومنارة من نحاس عليها راكب من نحاس بأرض عاد، فإذا كانت الأشهر الحرم هطل منها الماء فشرب الناس واستقوا وصبوا في الحياض فان انقطعت الأشهر الحرم انقطع ذلك الماء إلى آخر. وشجرة من نحاس بأرض رومة عليها زرزور من نحاس سودانية فإذا كان أوان الزيتون صفرت تلك السودانية من النحاس فيعصر أهل رومة ما يكفيهم من الزيت لإدمهم وسُرجهم في كنائسهم إلى عام قابل.

هذا الذي ذكره عبد الله بن عمرو بن العاص خبر مشهور موجود في كتب الحكماء، والمرآة التي كانت بمنار الإسكندرية صح خبرها بالتواتر خاصة، وإنما عمل الروم في إفسادها خوفا منها، ولهذه المدينة من المدارس والمساجد ما لا يستوفيه وصف، ذكر الهروى في بعض تآليفه أن مدينة الإسكندرية احتوت على اثني عشر ألف مسجد، وذكر أبو الربيع بن سالم الكلاعي في كتاب الاكتفاء له، قال: كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين فتح الإسكندرية، أما بعد فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف منية بأربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية، وأربعمائة حلة للملوك، وعن أبى قبيل، أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية وجد فيها إثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر (انتهى)، إلى غير ذلك من المعاهد والمفاخر والمشاهد والمآثر، وفيها تربة بعض الأنبياء عليهم السلام، وتربة بعض

التابعين رضوان الله عليهم أجمعين، استوفيت زيارة جميعهم وتردد إلى مبارك بقيعهم، ثم عدت إلى لقاء العلماء والأخذ عن الفضلاء[...].

القاهرة ، عنبرية الأنفاس

ولم نزل نسرح في روض من ذلك الاجتماع، ونشرح ما وجدناه من البعد والانقطاع، إلى أن تهيأ نفرنا، وتأتّى في البر سفرنا، فخرجنا من الإسكندرية في يوم الثلاثاء ثامن يوم من رجب المذكور، وسرنا في بسيط من الأرض عريض مرداه لا يخترقه النسيم بمسراه، ويكاد البصر يقف عند مداه، بين مدائن عليها نضره النعيم وبساتين اعتمارها من التعميم، وسرحات مونقة، ودوحات مورقة، ونخلات طلع، وخامات زرع، تموج بدائعها موج البحر، وتلوح طلائعها بين كتائب الزهر من لم ير أرض مصر في أوان ربيعها، وأبان زروعها، لم ير منظرا نضيرا إلى أن وصلنا إلى مدينة (القاهرة) فدخلناها في آخر يوم الأحد الثالث عشر لرجب من العام المذكور فنزلنا منها بقرب الجامع الأعظم المشهور بجامع ابن طولون الذي بناه ابن طولون ، فيما يذكر، على مثال المسجد الحرام بمكة المشرفة طولا وعرضا، ولما أنبت كافور الفجر من المسك الغياهب، وظهرت الشمس المنيرة على النجم الثواقب:

حمدت السرى إذ أنزلتني ربوعها وأيقنت أني في اغترابي موفق

وسرنا في أقطار تلك الحضرة التي أرضها سندسية اللباس، وروضها متنوع الجناس، وروائحها عنبرية الأنفاس، ومنظرها يجلب أنواع الإيناس، فهي بغية النفس، وغاية الأنس، ومنية الطرف، ومسرح الظرف وسلوة الفكر، ونبعة العلم والذكر، وشغل الخاطر والذهن، ومحل الهناء والأمن[...].

وفتحت لي راحة القلب أبواب النزهة، فأطلقت عنان طرف الطرف نحو الجهة فرأيت فيها من المباني الهائلة والأسواق الحفلة والمساجد العتيقة والمدارس الأنيقة والمرابع البارعة والمصانع الناصعة والأزهار والأشجار الباهرة والآثار العامرة والجنود الوافرة والأمم المتكاثرة ما تحار في ذلك الأوهام وتكل دون وصفه الألسن والأقلام، القاهرة وما أدراك ما القاهرة ، الظلال الوارفة والمياه الهامرة والأرض الأريضة والروضات العاطرة منابر قام السرور في منبر دوحها خطيبا، ومشاهد بذت مغاني الشعب طيبا، إلى أغصان عقدت الجداول خلاخل بسوقها، ولئالئ مثلت من الرياض بسوقها، فمن حيث استقبلت تلك المدينة أشرقت وكيفما لمحت أساريرها برقت ومعلوم أنها قاعدة المشرق وأم المدائن ومقر الملوك ودار الطمأنينة، قد كمل الله حضرتها،

وجمل نضرتها بأن قلد بها أمور المسلمين، وخلد فيها العز والتمكين للسلطان الناصر الدنيا والدين أبى المعالي محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي قسيم الملك أمير المؤمنين أبى الربيع سليمان بن الخلفاء العباسيين ، فاستمرت سلطنته الآن مدة من خمسين سنة فجاءت الدنيا في أيامه غضة، وزهرة الأيام بهجة، لما منح الله على يديه من الأمن والسكون والدعة وظلال المسرة والهدنة فانسحب ذيل العز، وانضرب رواق الأمن، وانسدل ستر العافية على الملأ والكافة والأقطار النازحة والغريبة وخصوصا على هذه المدينة وما ظنك بمدينة عذب فيها البحر وفاض عليها من الجنة واستقبل بها النهي والأمر

وانحشر الناس إليها فخيل لرائيها الحشر[...].

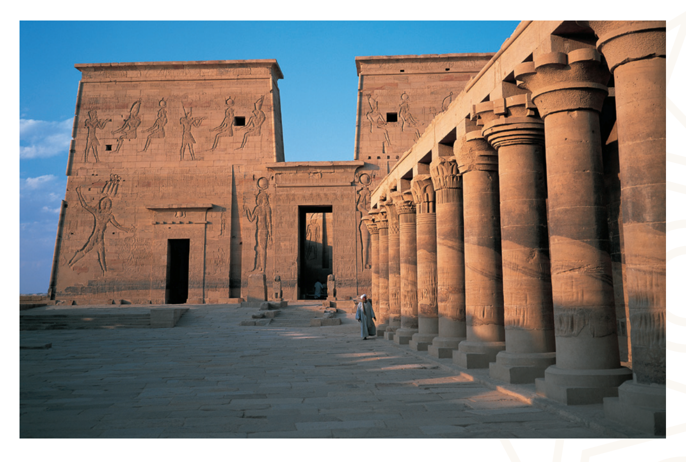
ركوب النيل

ركبت بحر نيلها العذب في جملة وافرة من الصحب أخلاقهم أعذب من مائه وشمائلهم أرق من صفائه، فاستوينا على جارية من تلك الجواري المنشئات وسابحة فوق لجة الماء العذب الفرات وتحسبها جامدة وهي تمرمر السحاب وتنساب في الحباب كالحباب ولما ضمت إلينا، ودخلناها، وقلنا: اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ولا فرش غير ريحان منضد، ولا سقف غير كتان ممدد، تمخر البحر، فامتطينا بأجوفتها مطاه، وتذلل فصفعنا بأجنحتها قفاه وسرنا في منزهات تلك الأقطار الرفيعة إلى أن قضينا أجمل الأوطار وتمتعنا من تلك المنازل الرفيعة بالحدائق الغضة والنسيم المعطار، بحيث تضاحك الورد والبهار، وتفاوح الروض والعرار، وأرضها مخضر نبت صاغ النور تاجه، وحاك القطر ديباجه، وسماؤنا ملتف أيك سال الماء لجينا بين أكنافه، وحاك الزهر وشيا بين أعطافه، فماء الندى مسكوب، ورواق الظل مضروب، والريح تصفق والغصن يتثنى، والقبر يصرصر والبلبل يتغنى، والطير قد تكلم، والعود قد ترنم وقد خيم السرور، وتضاعف بتضاعف النيل الحبور، وبدا لنا



يوم حسن، وحسن يوم تمنت حسنه البدور.

المارستان



وهو قصر عظيم من القصور الرائقة حسنا وجمالا واتساعا ما لم يعهد مثله بقطر من الأقطار أحسن بناء ولا أبدع إنشاء ولا أكمل انتهاء في الحسن والجمال وانتماء من قد نعمت أدواحه وخبت على خضر الأغصان وزرق العدران أرواحه فلا غرو أن أمن ورقى، ثم لما كسا وأطعم سقى، آية نعمى وفت بالميعاد، وحسنا مثلها يعد للمعاد قد رويت جوانحه الصادية، وجمعت في شرعته السارية والغادية، فها هو فخره بادي الغرر والأوضاح، منبجس بالماء القراح [...].

أخبرني الشيخ العالم المؤرخ شمس الدين الكركي المذكور أنه يكمل في كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناقهين الخارجين منه أربعة آلاف نفس، وتارات يزيدون وينقصون ولا يخرج منه كل من يبرأ فيه من مرض حتى يعطي إحسانا إليه، وإنعاما إليه كسوة للباسه ودراهم لنفقاته، وأما ما يعالج به المرضى من قناطير الأشربة المقنطرة والأكحال الرفيعة الطيبة التي تسحق فيها دنانير الذهب والإبريز وفصوص الياقوت النفيس وأنواع اللؤلؤ الثمين فشيء يهول السماع ويعم ذلك الجمع إلى ما يضاف إلى ذلك كله من لحوم الطيور والأغنام على اختلافها وتباين أصنافها مع ما يحتا ج إليه كل واحد ممن يوافيه ويحل فيه لفرشه وعرشه من غطاء ووطاء ومشموم ومذرور وشبه ذلك مما هو معد على أكمله هنالك وما ليس مثله إلا في منزل أمير أو خليفة، وقد رتب على ذلك كله من الأطباء الماهرين والشهود المبرزين، والنظام العارفين، والخدام المتصرفين، كل ما هو في معالجته موثوق بعدالته مسلم له في معرفته غير مقصر في تصرفه وخدمته، ولو استقصيت الكلام في هذا المارستان وحده لكان مجلدا مستقلا بنفسه إذ في مبانيه الرائعة وصناعاته وتواريخه المذهبة ونقوشه العجيبة المنتخبة التي ترفل في ملابس الإعجاب، وتسحر العقول والألباب، ما يفتن النفوس ويكسف أنواع البدور والشموس، وتعجز عن وصف بعضها خطى الأقلام في ساحة الطروس، فما وقعت عين على مثله ولا سمعت بشبهه وشكله[...].

وفي مصر مارستان آخر على مثاله ولكن ليست حاله كحاله، فما كل صهباء خمرة، ولا كل سوداء ثمرة، ولا كل حيوان إنسان، ولا كل مارستان:

وما كل دار أقفرت دارة الحما　　ولا كل بيضاء الترائب زينت

قباب الأهرام

وبها الأهرام القديمة المعجزة البناء الغريبة المنظر البديعة الإنشاء كأنها القباب المضروبة قامت في جو السماء، ولا سيما الاثنان منها يقصر الجو بهما سموا واتساعا ارتفاعها مائة ذراع بالذراع الكبيرة من أحد أركانها إلى الركن الثاني ثلاثمائة خطوة وست وستون خطوة وأقيمت من الصخر العظام تركيبها بديع الإلصاق، وهي محدودة الأطراف لا سبيل إلى الصعود إليها إلا على خطر ومشقة فتلقى أطرافها المحدودة كأوسع ما يكون بين الرحاب لو رام أهل الأرض بناءها لا عجزهم ذلك وبها كان يجعل الطعام في أيام يوسف عليه السلام، وعلى النيل رجل مبني من صخرة فيه علامات لخروج النيل في زيادته ونقصانه وقد وكل به قوم يتعاهدونه فإذا خرج سقى جميع ضياعهم ومزارعهم وهم يزرعون على ذلك السقي

ولا يحتاج زرعهم إلى سقي آخر بقدرة السميع العليم، ومخرج النيل من جبل القمر ولا يكاد يتوصل إليه أحد لبعد المشقة

وطول المسافة وفي كتاب الاكتفاء ما نصه، وكان عمرو بن العاص يقول ولآية مصر جامعة تعدل الخلافة وقال نيل مصر سيد الأنهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب فإذا أراد الله أن يجريه أمر الأنهار فأمدته بمائها وفجر له الأرض عيونا فإذا انتهت جريته إلى ما أراد الله سبحانه أوحى كل ماء ان يرجع إلى عنصره انتهى، ثم جلنا من مصر في أعظم المصر، وحللنا منها اكرم المحل واسنى القطر، واجتليناها أوضح من البدر عند الفجر وأعطر من الزهر غب القطر فنسي كل ذي غربة وطنه وود ان لو قطع فيها عمره وزمنه وكفاك منها قول القائل:

لعمرك ما مصر بمصر وإنما　　هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والحور عينها　　وروضتها الفردوس والنيل كوثر

من رحلة: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق

ابن خلدون
(1332م- 1406م)

وصل ابن خلدون إلى الإسكندرية على السفينة قادما من المغرب يوم عيد الفطر مع بداية شهر دسمبر 1382 م ، ولم يُغادر مصر،التي تولى فيها القضاء قاصدا الحج ، إلا في نهاية شتنبر 1387م.قبل أن يعود مرة أخرى إلىمصر مستقرا فيها.

الرحلة إلى المشرق، وولاية القضاء

ولما رحلتُ من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين، أقمنا في البحر نحوا من أربعين ليلة، ثم وافينا مرسى الاسكندرية يوم الفطر. ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر على التخت، واقتعاد كرسي الملك دون أهله بني قلاون؛ وكنا على ترقب ذلك، لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك، وتمهيده له. وأقمت بالإسكندرية شهرا لتهيئة أسباب الحج ولم يُقدر عامئذ، فانتقلت إلى القاهرة أول ذو القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهر الحوانك والمدارس بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه؛ قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء، يستقيم النهل والعلل سيْحَهُ ويجني اليهم الثمرات والخيرات ثجه؛ ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم. وما زلنا نحدث عن هذا البلد، وبعد مداه في العمران، واتساع الأحوال؛ ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا، حاجهم وتاجرهم، بالحديث عنه. سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس، وكبير العلماء بالمغرب؛ أبا عبد الله المقري، مقدمه من الحج أربعين سنة، فقلت له: كيف هذه القاهرة؟ فقال: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام.

وسألت شيخنا أبا العباس ابن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال: كأنما انطلق أهله من الحساب؛ يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب.

وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس، الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجي بمجلس السلطان أبي عنان، منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر، وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم، سنة ست وخمسين وسأله عن القاهرة فقال:

أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار: أن الذي يتخيله الإنسان، فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها، لاتساع الخيال

عن كل محسوس، إلا القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها. فأعجب السلطان والحاضرون بذلك.

ولما دخلتها، أقمت أياما، وانثال علي طلبة العلم بها، يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة، ولم يوسعوني عذرا؛ فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها.

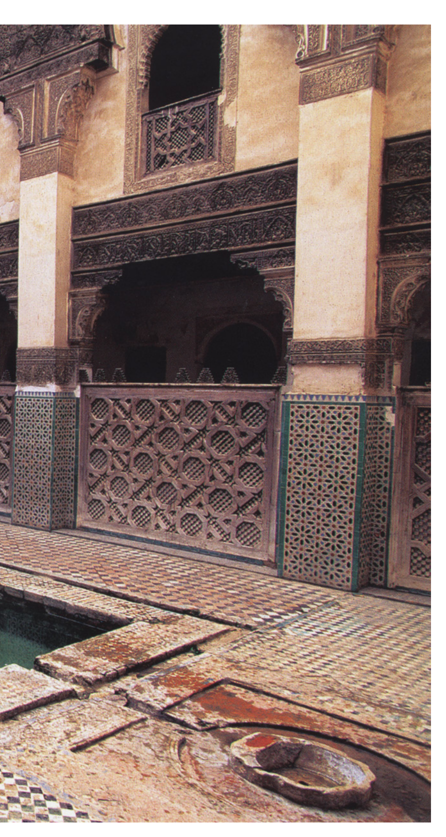
ثم كان الاتصال بالسلطان، فأبر اللقاء، وأنس الغربة، ووفر الجراية من صدقاته، شأنه مع أهل العلم، وانتظرت لحاق أهلي وولدي من تونس، وقد صدهم السلطان هنالك عن السفر، اغتباطا بعودي إليه، فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه في تخلية سبيلهم، فخاطبه في ذلك بما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم.

عبد الله ووليه أخوه برقوق [......]

السلطان الأعظم، المالك الملك الظاهر، السيد الأجل، العالم العادل، المؤيد المجاهد، المرابط المثاغر، المظفر، الشاهنشاه، سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، اسكندر الزمان، مولي الإحسان، مُملك أصحاب التخوت والأسرة والتيجان، واهب الأقاليم والأقطار، ومبيد الطغاة والبغاة والكفار، ملك البحرين، مسلك القبلتين، خادم الحرمين الشريفين، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، سلطان البسيطة مؤمن الأرض المحيطة، سيد الملوك والسلاطين، قسيم أمير المؤمنين، أبو سعيد برقوق ابن الشهيد شرف الدنيا والدين أبي المعالي أنس. خلد الله سلطانه، ونصر جيوشه وأعوانه- يخص الحضرة السنية السرية، المظفرة الميمونة، المنصورة المصونة، حضرة السلطان العالم، العادل المؤيد، المجاهد الأوحد، أبي العباس، ذخر الإسلام والمسلمين، عدة الدنيا والدين، قدوة الموحدين، ناصر الغزاة والمجاهدين، سيف جماعة الشاكرين، صلاح الدول. لا زالت مملكته بقوته عامرة، ومهابته لنفوس الجبابرة قاهرة، ومَعدلته تُبوئه غرفات العز في الدنيا والآخرة. سلام صفا ورده وضفا برده، وثناء فاح نده، ولاح سعده، ووداد زاد وجده، وجاد جَده.

أما بعد حمد الله الذي جعل القلوب أجنادا مجندة، وأسباب الوداد على البعاد مؤكدة، ووسائل المحبة بين الملوك في كل يوم مجددة؛ والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله، الذي نصره الله بالرعب مسيرة شهر وأيده وأعلى به منار الدين وشيده؛ وعلى آله وأصحابه الذين اقتفوا طريقه وسؤدده، صلاة دائمة مؤبدة. فإننا نوضح لعلمه



الكريم، أن الله – ولله الحمد – جعل جبلتنا الشريفة مجبولة على تعظيم العلم الشريف وأهله، ورفعة شأنه، ونشر أعلامه، ومحبة أهله وخدامه، وتيسير مقاصدهم، وتحقيق أملهم، والإحسان إليهم، والتقرب إلى الله بذلك في السر والعلانية؛ فإن العلماء رضي الله عنهم ورثة الأنبياء وقرة عين الأولياء، وهداة خلق الله في أرضه، لا سيما من رزقه الله الدراية فيما علمه من ذلك، وهداه للدخول إليه من أحسن المسالك، مثل من سطرنا هذه المكاتبة بسببه : المجلس السامي، الشيخي، الأجلي، الكبيري، العالمي، الفاضلي، الاثيلي، الأثيري، الامامي، العلامي القدوة، المقتدي، الفريدي، المحققي، الأصيلي، الأوحدي، الماجدي، الولوي، جمال الإسلام والمسلمين، جمال العلماء في العالمين، أوحد الفضلاء، قدوة البلغاء، علامة الأمة، إمام الأئمة، مفيد الطالبين، خالصه الملوك والسلاطين عبد الرحمن بن خلدون المالكي. أدام الله نعمته؛ فإنه أولى بالإكرام، وأحرى، وأحق بالرعاية وأجل قدرا؛ وقد هاجر إلى ممالكنا الشريفة، وآثر الإقامة عندنا بالديار المصرية، لا رغبة عن بلاده، بل تحببا إلينا، وتقربا إلى خواطرنا، بالجواهر النفيسة، من ذاته الحسنة، وصفاته الجميلة؛ ووجدنا منه فوق ما في النفوس، مما يحل عن الوصف ويربي على التعداد. يا له من غريب وصف ودار، قد أتى عنكم بكل غريب؛ وما برح – من حين ورد علينا – يبالغ في شكر الحضرة العلية، ومدح صفاتها الجميلة، إلى أن استمال خواطرنا الشريفة إلى حبها، وآثرنا المكاتبة إليها.

• والعين تعشق قبل الأذن أحيانا •

وذكر لنا في أثناء ذلك، أن أهله وأولاده، في مملكة تونس تحت نظرة الحضرة العلية، وقصد إحضارهم إليه ليقيموا عنده، ويجتمع شمله مدة إقامته عندنا، فاقتضت آراؤنا الشريفة، الكتابة إلى الحضرة العلية لهذين السببين الجميلين؛ وقد آثرنا إعلام الحضرة العلية بذلك ليكون على خاطرة الكريم، والقصد من محبته، يقدم أمره العالي بطلب أهل الشيخ ولي الدين المشار إليه، وإزاحة أعذارهم، وإزالة عوائقهم، والوصيه بهم، وتجهيزهم إليه مكرمين، محترمين، على أجمل الوجوه صحبة قاصده الشيخ الصالح، العارف السالك الأوحد، سعد الدين مسعود المكناسي، الواصل بهذه المكاتبة أعزه الله؛ ويكون تجهيزهم على مركب من مراكب الحضرة العلية، مع توصية من بها من البحرية بمضاعفة إكرام المشار إليهم ورعايتهم، والتأكيد عليهم في هذا المعنى، وإذا وصل من بها من البحرية، كان لهم الأمن والإحسان فوق ما في أنفسهم، ويربي على أملهم؛ بحيث يهتم

بذلك على ما عهد من محبته، وجميل اعتماده، مع ما يتحف به من مراسلاته، ومقاصده ومكاتباته. والله تعالى يحرسه بملائكته وآياته، بمنه ويمنه إن شاء الله.

كُتبَ خامس عشر صفر المبارك من ست وثمانين وسبعمائة حسب المرسوم الشريف. الحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ثم هلك بعض المدرسين بمدرسة القمحية بمصر، من وقف صلاح الدين بن أيوب، فولاني تدريسها مكانه، وبينا أنا في ذلك، إذ سخط السلطان قاضي المالكية في دولته، لبعض النزعات فعزله، وهو رابع أربعة بعدد المذاهب، يدعى كل منهم قاضي القضاة، تمييزا عن الحكام بالنيابة عنهم، لاتساع خطة هذا المعمور، وكثرة عوالمه، وما يرتفع من الخصومات في جوانبه، وكبير جماعتهم الشافعية، لعموم ولايته في الأعمال شرقا وغربا، وبالصعيد والفيوم، واستقلاله بالنظر في أموال الأيتام، والوصايا؛ ولقد يقال أن مباشرة السلطان قديما بالولاية إنما كانت تكون له.

فلما عزل هذا القاضي المالكي سنة ست وثمانين، اختصني السلطان بهذه الولاية، تأهيلا لمكاني، وتنويها بذكري؛ وشافهته بالتفادي من ذلك، فأبى إلا إمضاءه؛ وخلع علي بإيوانه، وبعث من كبار الخاصة من أقعدني بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية بين القصرين، فقمت بما دفع إلي من ذلك المقام المحمود، ووفيت جهدي بما أمنني عليه من أحكام الله، لا تأخذني في الحق لومة، ولا يزعني عنه جاه ولا سطوة، مسويا في ذلك بين الخصمين، آخذا بحق الضعيف من الحكمين، معرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين؛ جانحا إلى التثبت في سماع البينات، والنظر في عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات؛ فقد كان البر منهم مختلطا بالفاجر، والطيب ملتبس بالخبيث، والحكام ممسكون عن انتقادهم، متجاوزون عما يظهرون عليه من هناتهم، يُموِّهون به من الاعتصام بأهل الشوكة؛ فإن غالبهم مختلطون بالأمراء، معلمين للقرآن، وأئمة في الصلوات، يلبسون عليهم بالعدالة، فيظنون بهم الخير، ويقسمون لهم الحظ من الجاه في تزكيتهم عند القضاة؛ والتوسل لهم؛ فأعضل داؤهم، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم؛ ووقفت على بعضها فعاقبت بموجع العقاب، ومؤلم النكال؛ وتأدى إلي العلم بالجرح في طائفة منهم، فمنعتهم من تحمل الشهادة؛ وكان منهم كتاب لدواوين القضاة، والتوقيع في مجالسهم، وقد دَربوا على إملاء الدعاوى، وتسجيل الحكومات، واستخدموا للأمراء فيما يعرض لهم من العقود، بإحكام كتابتها، وتوثيق شروطها؛ فصار لهم بذلك شفوف على أهل طبقتهم، وتمويه على القضاة

بجاههم، يدرعون به مما يتوقعونه من عتبهم، لتعرضهم لذلك بفعلاتهم، وقد يسلط بعض منهم قلمه على العقود المحكمة، فيوجد السبيل إلى حلها بوجه فقهي؛ أو كتابي؛ ويبادر إلى ذلك متى دعا إليه داعي جاه أو منحة؛ وخصوصا في الأوقاف التي جاوزت حدود النهاية في هذا المصر بكثرة عوالمه؛ فأصبحت خافية الشهرة، والأعيان، عرضة للبطلان، باختلاف المذاهب المنصوبة للحكام بالبلد؛ فمن اختار فيها بيعا أو تمليكا، شارطوه وأجابوه، مُفتاتين فيه الحكام الذين ضربوا دونه سد الحظر والمنع حماية من التلاعب؛ وفشا في ذلك الضرر في الأوقاف، وطرق الغرر في العقود والأملاك.

فعاملتُ الله في حسم ذلك بما آسفهم عليّ وأحقدهم؛ ثم التفت إلى الفتيا بالمذهب، وكان الحكام منهم على جانب من الخبرة، لكثرة معارضتهم، وتلقينهم الخصوم، وفتياهم بعد نفوذ الحكم؛ وإذا فيهم أصاغر، بيناهم يتشبثون بأذيال العدالة ولا يكادون؛ إذا بهم طفروا إلى مراتب الفتيا والتدريس، فاقتعدوها، وتناولوها بالجزاف، واحتازوها من غير مُثرب ولا منتقد للأهلية ولا مرشح؛ إذ الكثرة فيهم بالغة، ومن كثرة الساكن مشتقة، وقلم الفتيا في هذا المصر طلق، وعنانها مرسل، يتجاذب كل الخصوم منه رسنا، ويتناول من حافته شقا، يروم به الفلج على خصمه، ويستظهر به لإرغامه، فيعطيه المُفتي من ذلك مِلءَ رضاه، وكِفاءَ أمنيته، متتبعا إياه في شعاب الخلاف؛ فتتعارض الفتاوى وتتناقض، ويعظم الشغب إن وقعت بعد نفوذ الحكم؛ والخلاف في المذاهب كثير، والإنصاف متعذر، وأهلية المفتي أو شهرة الفتيا ليس تمييزها للعامي؛ فلا يكاد هذا المدد ينحسر، ولا الشغب ينقطع.

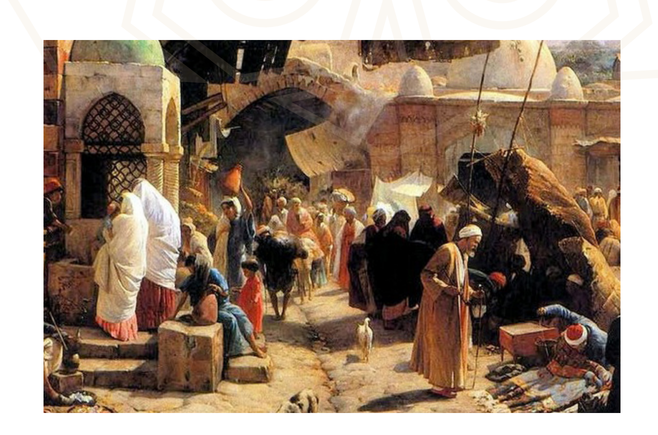
فصدعت في ذلك بالحق، وكبحت أعنة أهل الهوى والجهل، ورددتهم على أعقابهم. وكان فيهم ملتقطون سقطوا من المغرب؛ يشعوذون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك، لا ينتمون إلى شيخ مشهور، ولا يعرف لهم كتاب في فن، قد اتخذوا الناس هزؤا، وعقدوا المجالس مثلبة للأعراض، ومأبنة للحرم، فأرغمهم ذلك مني، وملأهم حسدا وحقدا علي، وخلوا إلى أهل جلدتهم من سكان الزوايا المنتحلين للعبادة، يشترون بها الجاه ليجيروا به على الله؛ وربما اضطر أهل الحقوق إلى تحكيمهم، فيحكمون بما يلقي الشيطان على ألسنتهم يترخصون به للإصلاح، لا يزعهم الدين عن التعرض لأحكام الله بالجهل؛ فقطعت الحبل من أيديهم، وأمضيت أحكام الله فيمن أجاوره، فلم يغنوا عنه من الله شيئا، وأصبحت زواياهم مهجورة، وبئرهم التي يمتاحون منها معطلة. انطلقوا يراطنون السفهاء في النيل من عرضي، وسوء الأحدوثة عني بمختلق الإفك، وقول الزور، يبثونه في الناس، ويدسون إلى السلطان التظلم مني فلا يصغي إليهم؛ وأنا في ذلك محتسب عند الله ما منيت به من هذا الأمر، ومعرض فيه عن الجاهلين، وماض على سبيل سواء من الصرامة، وقوة الشكيمة، وتحري المعدلة، وخلاص الحقوق، والتنكب عن خطة الباطل متى دعيت إليها، وصلابة العود عن الجاه والأغراض متى غمزني لامسها؛ ولم يكن ذلك شأن

من رافقته من القضاة، فنكروه علي، ودعوني إلى تبعهم فيما يصطلحون عليه من مرضات الأكابر، ومراعاة الأعيان، والقضاء للجاه بالصورة الظاهرة، أو دفع الخصوم إذا تعذرت، بناء على أن الحاكم لا يتعين عليه الحكم مع وجود غيره، وهم يعلمون أن قد تمالأوا عليه.

وليت شعري! ما عذرهم في الصور الظاهرة، إذا علموا خلافها؛ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول في ذلك: « من قضيت له من حق أخيه شيئا فإنما أقضي له من النار».

فأبيت في ذلك كله إلا إعطاء العهدة حقها؛ والوفاء لها ولمن قلدنيها، فأصبح الجميع علي ألبا، ولمن ينادي بالتأفف مني عونا، وفي النكير علي أمة؛ وأسمعوا الشهود المنوعين أن قد قضيت فيهم بغير الحق، لاعتمادي على علمي في الجرح، وهي قضية إجماع؛ وانطلقت الألسنة، وارتفع الصخب، وأرادني بعض على الحكم بغرضهم فوقفت، وأغروا بي الخصوم فتندوا بالتظلم عند السلطان؛ وجمع القضاة وأهل الفتيا في مجلس للنظر في ذلك، فخلصت تلك الحكومة من الباطل خلوص الإبريز، وتبين أمرهم للسلطان، وأمضيت فيها حكم الله إرغاما لهم، فغدوا على حرد قادرين، ودسوا لأولياء السلطان وعظماء الخاصة، يقبحون إليهم إهمال جاههم، ورد شفاعتهم موهين بأن الحامل على ذلك جهل المصطلح، وينفقون هذا الباطل بعظائم ينسبونها إلي، تبعث الحليم، وتغري الرشيد، يستشيرون حفائظهم علي، ويشربونهم البغضاء لي؛ والله مجازيهم ومسائلهم.

فكثر الشغب علي من كل جانب، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة. ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفين، فأصابها قصيف من الريح فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود؛ فعظم المصاب والجزع، ورجح الزهد، واعتزمت الخروج عن المنصب، فلم يوافقني عليه النصيح ممن استشرته، خشية من نكير السلطان وسخطه؛ فوقفت بين الورد والصدر، وعلى صراط الرجاء واليأس؛ وعن قريب تداركني اللطف الرباني، وشملتني نعمة السلطان – أيده الله - في النظر بعين الرحمة، وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها، ولا عرفت – كما زعموا – مصطلحها، فردها إلى صاحبها الأول، وأنشطني من عقالها؛ فانطلقت حميد الأثر، مشيعا من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء؛ وتلحظني العيون بالرحمة، وتتناجى الآمال في بالعودة؛ ورتعت فيما كنت راتعا فيه من قبل من مراعي نعمته وظل رضاه وعنايته، قانعا بالعافية التي سألها رسول الله صلى



الله عليه وسلم من ربه، عاكفا على تدريس علم، أو قراءة كتاب، أو إعمال قلم في تدوين تأليف، مؤملا من الله. قطع صبابة العمر في العبادة، ومحو عوائق السعادة بفضل الله ونعمته.

عن كتاب: "التعريف بابن خلدون ورحلاته شرقا وغربا"

القلصادي

(1422م- 1487 م)

دامت رحلة القلصادي ما بين 1437م و1451 م،قطعها في خروجه من غرناطة، على مراحل، فقد استقر بتلمسان ولم يغادرها إلى تونس إلا في سنة 1445 م، وبقي مستقرا ولم يرحل منها إلى مصر 1447 م التي وصل إسكندريتها يوم 14 غشت 1447م وخرج منها يوم 21 من نفس الشهر ليصل القاهرة يوم 29 غشت ولم يغادرها إلا في السابع من أكتوبر 1447

الوصول إلى ثغر الإسكندرية

وبلغنا إلى ثغر الإسكندرية غرة جمادى الثانية 14أوت 1447م، بعد مشقات عظام، تحار في وصفها المحابر والأقلام، حتى وقع من كل لأمر الله الإستسلام وصار الإنسان ينادي بلسان الحال: (انا الغريق فما خوفي من البلل؟) ولما دخلنا المدينة وقرَّ بِنَا فيها القرار، وزال عنا وعثاء السفر، أقمنا بها أياما مستبشرين، وزُرْنَا فيها الأولياء والصالحين.

والمدينة من أحسن البلاد ترتيباً وبناءً، وجدرانها بالحجر الأبيض المنجور، وسككها كلها على نسق، نافذة متسعة يعلم من ذلك أنها من تخطيط حكيم، وبناؤها تحت الأرض محكم، والماء يخترق باطنها، غير أنها قد خربت وخلا أكثرها من العمارة، وهي كثيرة الوخامة، فلا تجد أهلها إلا صفر الوجوه، وإذا مر على الإنسان فيها يوم أو يومان، يشعر بالضعف والنقص في بدنه، وذلك من أجل مائها، والله أعلم.

ومن العجائب التي فيها: السارية خارج باب السدرة، اكتلت في أحد جوانب القاعدة التي هي عليها عشرين شبراً، وهي مربع متساوي الأضلاع. وكان سفرنا منها في بحر النيل في الثامن من جمادى الثانية.

الوصول إلى القاهرة

وبلغنا إلى بولق سَحَرَ يوم الثلاثاء السادس عشر من الشهر 29أوت 1447م ، ودخلنا القاهرة ذلك اليوم، ورأينا فيها من الأمور والأحوال، ما لا يعده الحصر والقياس ، من كثرة الخلق وازدحام الناس، ونزلت بجامع الأزهر، ووجدت هناك بعض الفضلاء والأخيار من أهل المغرب.

وبعد ذلك وقع اجتماعنا بصاحبنا الفقيه الإمِامِ الفذ في وقته ذي العلوم الفائقة والمعاني الرائقة أبيِ الفضل المشذالي، لم أر مثله في تحصيل العلوم وتحقيقها، آخذ في كل علم بأَوْفَرِنصيب، وضارب فيه بسهم مصيب، وتذكرنا أزماناً مضت لنا بتلمسان، ويا لها من ليالي وأيام، مع أشياخ وسادة أعلام.

ثم زرت هناك ما هو عندهم من المواضع المعظمة كمسجد الحسين ومقام الإمام الشافعي وشهرته تُغْنِي عن تعريفه ،وهو من أشرف المواضع والبقاع، وعندهم من الأماكن الشريفة، مقام السيدة نفيسة، وقد كلل بالحلي والحلل، وكساه المولى الهيبة والجلال.

لقــاء:

ثم [اشتغلت] بالقراءة على الشيخ الفقيه الإمام المقرئ [المالكي] سيدي زين الدين طاهر فقرأت عليه بعض المختصر للشيخ خليل، وحضرت البعض منه، وكذلك بعض التفريع لابن الجلاب، وبعض شرح الشاطبية للفاسي، وكذلك لازمت القراءة على الشيخ الفقيه الإمام الصوفي الشافعي: سيدي أبوالعباس عَلَم الدين الحصني فقرأت عليه جميع كتابه المسمى بفوائد العقائد في الأصول، وايساغوجي لابن الأثير في المنطق، وبعض الطوالع للبيضاوي.

الخروج

ثم سرت يوم الأحد السادس والعشرين لرجب7 أكتوبر1447م إلى التربة المسماة بتربة عبد الغني ورحلنا منها يوم الثلاثاء، وبلغنا إلى الطور يوم الخميس الثامن من شعبان 19أكتوبر 1447م وركبنا البحر من هناك في السادس عشر من الشهر27أكتوبر 1447م، وبلغنا إلى الينبوع عند الزوال من يوم الجمعة السابع من شهر رمضان المعظم 16نوفمبر1447م وكان سفرنا من الينبوع يوم الأحد سادس عشر من رمضان 25 نوفمبر1447م.

من رحلة القلصادي المسماة : [9] تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب [6]

لأبي الحسن علي القلصادي

أبو سالم العياشي
(1628 - 1679)

تعتبر هذه الرحلة هي الثالثة بعد رحلتين سابقتين لأبي سالم العياشي إلى الحجاز 1649 و1653 وقد دامت رحلته الأخيرة سنتين(1661-1663).

ولما كان آخر الليل بعثنا بعض إخواننا وأصحابنا فتقدموا مع من تقدم إلى القاهرة ليرتادوا لنا منزلا قرب الأزهر ، لأن كثيرا من الحجاج ينزلون بطولون ليقربوا من الرملة محل سوق الدواب وما يحتاج إليه من أمور السفر، ومن كان ذا تجارة ينزل بالوكائل. ونحن لا نعدل بقرب الأزهر مكانا، ونزول الوكائل لا يليق بنا لضيق بيوتها ونحن جماعة كثيرة، إذ لا يسعنا وأتباعنا إلا منزل واسع كثير المساكن جامعا للمرافق، وكتبنا له إلى محبنا وأخينا في الله الشيخ علي الدمشيتي ليبذل مجهوده في ذلك.

ولما أصبحنا ارتحلنا وسلكنا بين القرى ولم نأخذ طريق البر لبُعدها. وما كان يحمل الناس عليها في غير هذا الوقت إلا فيضان النيل، فلا يتمكن المارون من السلوك فيما بين القرى من كثرة المياه، وفي هذا الوقت وجدنا البلد يابسا لا ماء فيه، إذ لم يأتي وقته، ثم مررنا بالمنصورية ثم بقرية وسيم ثم بغير ذلك من القرى، إلى أن نزلنا خارج أنبابة ضحى يوم الأحد الخامس والعشرين من رمضان الموفي خمسين يوما من خروجنا من بلد سيدي أحمد زروق آخر العمران من عمالة طرابلس، ولم تكن هذه المدة كلها مشيا، بل فيها نحو الخمسة أيام إقامة، وخلص للمشي خمس وأربعون يوما من مسراتة إلى مصر، ولم يعهد قطع هذه المسافة في مثل هذه المدة إلا في النادر، وأعاننا على ذلك مع تيسير المولى جل جلاله اعتدال الهواء وطول النهار مع وجود الكلأ وشبع الإبل، وكنا نقطع هذه المسافة قبل هذه تارة في شهرين وتارة في شهرين ونصف، وربما مكثنا فيها إذا كان فصل الشتاء ثلاثة أشهر، ولما نزلنا بأنبابة تسارع الناس لشراء الفاكهة واللحم وطعام الحاضرة لبُعد عهدهم بذلك.

وأنبابة هذه مدينة على ساحل النيل لها أسواق ووكائل ومساجد على هيئة ما في القاهرة، وهي بالجانب الغربي في مقابلة مدينة بولاق بالجانب الشرقي، وأقمنا بها يومنا ذلك في أرغد عيش شبعا وريا، وكيف لا ونحن على ساحل النيل الذي هو أشرف الأنهار الأربعة الخارجة من الجنة، وأثر بركته ظاهرة للعيان في مائه وترابه وقراه

ومدائنه بحيث لا يوجد بلد أوسع مزارع وأكثر خصبا مع اتصال العمارة نحو الشهر من هذه، بيد أنها لها مزيد اختصاص بمضاعفة الوظائف الجورية على الرعية بحيث تملك رقابهم فضلا عن أموالهم، ولا يجدون عن ذلك محيصا، بمنعة أو فرار، حتى إن أحدهم لو أراد أن يتخلى عن السبب ويترك الزراعة والفلاحة لم يتركوه، ولو فر لاتبعوه حتى يأتون به أينما كان، حتى استفاض عند العمال الفسقة أن ثلاثة لا تقبل منهم شفاعة شافع، فيعدون منهم من يريد أن يتخلى عن الزرعة والفلاحة،(قاتلهم الله أنى يوفكون)، لا هم ينصفون ويخففون عنهم من المظالم، ولا هم يتركونهم يذهبون حيث شاؤوا يسيحون في الأرض يرزقون كما ترزق الطير بالالتقاط من نبات الأرض وخشاشها فتغدو خماصا وتروح بطانا، اتخذوا مال الله دولا وعباد الله خولا، (والله من ورائهم محيط)، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد ذكر المؤرخون أن مصر لابد أن تشتمل على طائفتين إحداهما في غاية العتو والاستكبار، والأخرى في غاية الذل والاحتقار، وقد صدقوا؛ قد كان بها فرعون وملأه فلم ينتهي دون أن قال: (أنا ربكم الأعلى)، وبنو إسرائيل إذ ذاك مستضعفون في الأرض(يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم)، ثم لم تزل كذلك، وإنها في زمننا بل قبله بأزمان لعلى مثل ذلك الوصف، فبشواتها وصناجقها وولاتها وحكامها، بل وسائر جندها وعسكرها فيما يظهر لنا ليس فيها إلا من أعماه حب الدنيا وختم على سمعه وقلبه فلا يرحمون ضعيفا ولا يوقرون كبيرا، أينما بدت لهم صبابة من الدنيا وثبوا عليها؛ إن كان صاحبها حيا تسببوا له بأدنى سبب حتى يأخذوا ماله، إما مع رقبته أو بدونها إن كان في العمر فسحة، وإن كان ميتا ورثوه دون بنيه وبناته، وأما رعيتها وفلاحتها فلا تسأل عما يلاقون من الجند من الظلم وما هم فيه من الإهانة والاحتقار تضرب ظهورهم وتؤخذ أموالهم، ولا مشتكى لهم إلا الله، ومن تجاسر منهم واشتكى ضوعف عليه العذاب الأليم.

قلت: ولعل(ذلك) لأجل هذه الدقيقة يكثر فيهم الصالحون لأن نفوسهم ميتة، قد تربوا على الذل والاحتقار، وزالت الرئاسة وحبها من قلوبهم، بل لم تسكنها قط، فإذا وفق أحدهم لعمل الطاعة والتفت أدنى التفات لإصلاح حاله، لم يبق مانع بينه وبين ذلك، لأن أكبر الموانع وأعظم الآفات حب الرئاسة. ومن جال في أرياف مصر واستخبر أهلها علم صحة ما ذكرنا، ومن لم يجل فليطالع الأخبار في الكتب المؤلفة في ذلك، كطبقات سيدي عبد الوهاب الشعراني، رضي الله عنه، وغيرها يرى مصداق ذلك. وأخبار مصر وظلم الولاة بها وغش الباعة وحيل المتسببين ومكر العاملين أعظم من أن تحصى، ولا غرض في تتبع ذلك، ومن أراده فليسأل من وردها يخبره ببعض البعض من ذلك وأيضا حل ذلك لم نشاهده وإنما يجري على ألسنة الناس من أهلها والمجاورين بها وبعض الواردين عليها، وغالبها لا يخلو من كذب ومغالاة فنزهنا أقلامنا أن نكتب ما لا نتحقق علمه ولا يغلب على الظن صدقه، سيما إن خلا عن فائدة دينية أو دنيوية، بل كان مجرد ملاحة أو مفاكهة.



وبالجملة فمصر أم البلاد شرقا وغربا، لا تستغرب شيئا مما يحكى عنها من خير أو شر ومصداق ذلك ما حدثنيه بعض أصحابنا من التجار في سنة أربع وستين قال: لما دخلت مصر في حدود الخمسين سكنت في بعض الوكائل، وكان من قدر الله ان اجتمعنا في محل واحد جماعة منا فلان وفلان تجار، وفلان طالب علم، وفلان ممن يميل إلى طريق الفقر، وفلان وفلان من أهل المجون، ذكر كلا بأسمائهم، قال فإذا أصبحنا تفرقنا كل واحد يغدو لحاجته، فإذا جن الليل جمعنا المنزل فنتحدث بما رأينا، فيقول التاجر: ما رأينا مثل هذا البلد في التجارة فأهلها كلهم تجار، ويحكي من ذلك حكاية ما شاهد، ويقول الفقيه مثل ذلك والفقير مثل ذلك وذو المجون مثل ذلك، وما ذاك إلا لكثرة أجناس الناس فيها فمن طلب جنسا وجد منه فوق ما يظن، فيظن أن غالب أهل البلد كذلك.

وبالجملة فأهلها لهم عقول راجحة، وذكاء زائد، فمن استعمله في الخير فاق فيه غيره ، ومن استعملها في غيره فكذلك، وقد ذكر ابن خلدون في كتابه: كتاب منتهى العبر إن بعض ملوك المغرب سأل بعض العلماء ممن حج عن مصر فقال له: أقول لك فيها قولا واختصر، من المعلوم إن دائرة الخيال أوسع من دائرة الحس، فغالب ما يتخيله الإنسان قبل رؤيته إذا رآه وجده دون ما يتخيله ومصر بخلاف ذلك؛ كل ما تخيلته فيها، فإذا دخلتها وجدتها أكثر من ذلك. وسئل آخر عنها فقال: كان الناس فيها قد حشروا إلى المحشر لا نرى أحدا يسأل أحد، كل واحد ساع فيما يرى فيه خلاص نفسه. [...]

وقائع تتكرر

وأخبار مصر وما فيها من العجائب وجميع ما يحتج إليه من أحوالها مستوفى في التواريخ فلا نطيل بكثير منها، وأحسن كتاب جامع في ذلك مع الاختصار كتاب: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة لجلال السيوطي فإنه مفيد جدا، ومن أجاد مطالعته لم يفته من أخبارها إلا المعاينة وأشياء قليلة من العوارض المشخصات.

ولما نزلنا بأنبابة رددنا إبلنا مع بعض أصحابنا وما لا نحتاجه من الأثاث إلى قرية المنشية وبها بعض أصحابنا من الفلاحين،

وقد تعرضوا لنا بالمنصورية، وتلك عادة الفلاحين عند قدوم الركب يتعرضونه ويتخذون الأصحاب ليودعوا عندهم الإبل

ويتركوها عندهم أمد الإقامة طلوعا ورجوعا، وهم كما قيل: الحرص على الأمانة دليل الخيانة، فلا نرى أعجب من تلطفهم ولين خطابهم عند نصب شبكة الخداع للمغتر من الحجاج، فيحلفون بالإيمان المغلظة على أداء الأمانة وبذل المجهود في النصيحة حتى يركن إلى قولهم، ولو من جربهم مرارا، ثم عند المفاصلة قلما ينفصل معهم أحد بطيب نفس، ومن أمثال الحجاج: المال المودع بع وانتفع، فالعاقل من باع ما فضل عنه من إبله أو ضاع، ومتى احتاج اشترى. ولكن رزق يسوقه الله

للفلاحين من قديم الزمان لا مطمع لأحد في قطعه، ففي كل مرة نقول: متى رجعنا لا نودع عند أحد، فإذا عدنا استنزلونا بخلب بارق من وعدهم الكاذب حتى نقع في حبائلهم ونتورط في مخالبهم التي يعسر الخروج منها بدين سالم وعرض مصون.

وعندما رجع الفلاحون بالإبل رجع معهم إلى قرى الريف غالب من خاف الوباء من الحجاج، فإنا لما نزلنا أنبابة خرج للقائنا من سبقنا في البحر من أصحابنا المغاربة، وأخبرونا إن الوباء في محال قليلة بمصر، إلا انه قليل، ومات منه جماعة من أهل مراكش القادمين في البحر، فلأجل ذلك رجع إلى الريف من تخوفه ونحن اعتمدنا على الله وقلنا: (حسبنا الله ونعم الوكيل)، وما خاف ذو جد إذا هو حسبلا.

ثم في الغد من يوم نزولنا بأنبابة، وهو السادس والعشرون من رمضان قطعنا النيل إلى مصر، ووجدنا النيل في غاية ما يكون من النقصان، قد انحسر الماء عن بقاع كثيرة في وسطه، فكأنه واد من أودية المغرب الكبار. ولما نزلنا بمرسى بولاق جمعنا أمتعتنا واكترينا لحملانها إلى الأزهر ثلاثة من الإبل.

عجيبة...

ومما يتعجب منه ما يحمله الجمالون بمصر على إبلهم، فمن ذلك أنّا قطعنا معنا بما كانت تحمله إبلنا تسعة عشر أو عشرون، فحملوا كل ذلك على ثلاثة، فقد سخر الله تعالى الإبل لهم ونزع الرحمة من قلوبهم عليها، يحملون عليها القناطير المقنطرة من الأمتعة وأحمال الحطب والتبن وغير ذلك، حتى لا يظهر من الجمل إلا رأسه، ثم يدخلونها السفينة كذلك وينيخونها فيها

بأحمالها على ظهورها، ثم يخرجونها منها كذلك وقد أَلِفت إبلهم ذلك ،وأما إبلنا فلا يدخل منها جمل إلى المركب إلا بعد عناء شديد ووثاق وثيق وضرب عنيف وإدارة الرجال بها بعضهم يحملها، وبعضهم يضربها. ولقينا هناك صاحبنا الشيخ علي الدمشيتي، فجزاه الله خيرا على صدق محبته وخلوص مودته.

لطيفة وعظيمة

والشيء بالشيء يذكر، ذكر الشعراني في طبقاته، عن بعض الصالحين ممن يسكن في بعض قرى مصر، أنه كثرت إذاية أهل القرية التي هو بها له، فعزم على الخروج منها، فاكترى جمالا لحمل أمتعته، فأتي بجمل فجعل يلقي عليه كلما كان من الأمتعة، فلما أكثر عليه قال له الشيخ: إنك قد أثقلت على هذا الجمل. فقال له صبي هناك: يا عم، إن الجمل يحمل أكثر من هذا، فتفكر في نفسه وقال: هذا خطاب من الحق لي، فإذا كان الجمل، وهو من الحيوانات العجم لا يعقل ولا يرج ثوابا، يحمل أكثر من هذا، فكيف لا أتحمل أنا أكثر من هذا من إذاية الخلق، فحط أمتعته ورجع، فسمع منشدا:

إن الجمال التي بالحمل قد عُرفت   تأبى العياء ولو مست من القتب

ذكر دخولنا إلى القاهرة

ثم دخلنا إلى القاهرة ضحى، ولم نجد دارا للكراء بقرب الأزهر مع شدة رغبتنا في ذلك، فطرحنا أمتعتنا بوكالة قايت باي بباب الأزهر الغرب، وجعلنا نتطلب دارا للسكنى، فما وجدناها إلا آخر النهار بمحل يقال له البردبكية، وجدنا هناك دارا واسعة فيها عدة مساكن، إلا أنها بعيدة عن الأزهر بنحو من أربع مائة من مشهد الحسين، رضي الله عنه، واكتريناها بثلاثة سبعين نصفا، ونقلنا إليها أمتعتنا.

ووجدنا الوباء بالقاهرة كما بلغنا، إلا انه خفيف، يُصَلى في الجامع الأزهر كل يوم على نحو من عشرة، ومن علم حال مصر وما يموت فيها أيام سلامتها من هذا العارض يرى هذا، مع وجود الوباء، كلا شيء، وقد حكى لي بعض الأصحاب إن الوباء وقع بمصر مرة فكثر الموت حتى كان يدفن في اليوم الواحد أربعون ألفا، فهَمَّ الباشا وأتباعه بالخروج من مصر والفرار لما شاهد من كثرة الموت، فلما فشا خبر إرادته الخروج طلع إليه رجل مسن من أهل التجربة والرأي فقال له: بلغني أنك

تريد الخروج، فما الذي يخرجك؟. فقال: هذا الموت الذريع الذي وقع في الناس. فقال له: وأي موت هنا، ابعث إلى شيوخ الحومات بمصر يعدُّ لك كم من حومة بمصر، فبعث إليه، فعدوا الحومات فوجدوها أربعين ألفا، فقال له ذلك الشيخ: ألم أقل لك أي موت هناك، إنما هذا ميت من كل حومة، فهو إما عبد أو صبي أو امرأة. فلما سمع الباشة ذلك خفّ عليه الأمر فجلس[...].

لطيفة

تظافرت أقوال المنجمين والمعدلين بالقاهرة في تلك الأيام بأن الهلال يُرى ليلة ثلاثين، فيكون الشهر تسعا وعشرين، وقالوا: إن قوسه إحدى عشرة، أو اثنتي عشرة درجة، ومعلوم انه إن كان ذلك يظهر إن لم يستره غيم، وانتشر ذلك في الناس

واعتقدوه حتى قيل إن الباشة طلب من قاضي العسكر الحنفي أن يحكم بذلك فأبى، جزاه الله خيرا، وقال: لا أحكم حتى يُرى الهلال، فلما كان قبل المغرب طلع قاضي الشافعية، وهو المعد لذلك، مع عدوله إلى رأس المئذنة، وكان الصحو التام، فارتقبوا حتي انتشر الظلام فلم يروا شيئا، فأوقدوا المصابيح في المئذنة كما هو عادتهم في ليال الشهر كلها، فعلم الناس إن الغد من رمضان، فكذب الله أقوال المنجمين المتخرصين على الغيب، (والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب). وصام الناس يوم الثلاثين.

وفي ذلك اليوم لقيت برواق المغاربة الشيخ عمر فكرون، وهو رجل مسن أصله من سوسة، طالت إقامته بمصر، وله خبرة تامة بفروع المذهب، وله شرح على المختصر الفقهي في أربعة مجلدات، إلا أنه ليس بذلك على ما أخبرني به الثقة ممن رآه، وهو رجل يحب الفخر والثناء عليه وعلى مؤلفاته، وسرنا معه بسيره في ذلك، جبرا لخاطره لما رأينا من حسن إقباله علينا وانبساطه معنا، وأنشدنا أبياتا كثيرة مما دار بين الشيخ المقري رحمه الله وأهل عصره من أهل مصر، وأطرفنا بحكايات وأخبار غريبة وهو على كبر سنه ممتع وسامع في محاوراته ومسمع، وهو مع طول توليته القضاء في هذه المدينة على سيرة إخوانه من القضاة في هذه الديار، وحالهم لا يخفى، بل هو من أسهلهم وأقربهم إلى الصواب على ما يحكى، وإلى الله المشتكى.

غريبة:

في يد الشيخ أمر جراحات كادت أن تتلف بها يده، فلما سألناه أو سألنا غيره من أصحابه عن سبب ذلك، فأخبرنا إن شيخنا أبا الحسن الأجهوري جاءه بعض طلبة المغاربة يستفتيه في طلاق وقع بينه وبين زوجته، فرام أن يترخص له في ارتجاعها، فأبى الشيخ ، رضي الله عنه، من ذلك، فاحتقدها عليه المغربي وأسرها خيفة سوء في نفسه، فلما كان ذات يوم جاء مشتملا على خنجر والشيخ في المجلس يدرس، فلم يشعر به حتى ضرب الشيخ بخنجره، فترامى عليه من حضر من الطلبة يقونه بأنفسهم، فجرح جملة منهم، ووقى الله الشيخ من كيده وجرح في رأسه جرحا كان السبب في ذهاب عينيه، رضي الله عنه، وكان الشيخ موسى من جملة من جرح، فقبض على ذلك المغربي وضُرب ضربا شديدا، فأراد الولاة قتله فمنعهم الشيخ من قتله، ثم قتله الله بعد مدة بأثر ما حصل له من الضرب في المجلس.

وبعد ذلك ما كان الشيخ يترك أحدا من المغاربة يدخل عليه إلا كان معه أحد من أصحابه، ولم يزل شياطين الإنس والجن يضمرون العداوة والسوء لأهل العلم ، وينصر الله أولياءه عليهم بمقتضى صادق وعده، (وكان حقا علينا نصر المؤمنين)، وينجيهم من كيدهم، ويحميهم من شرهم بحماية(ثم ننجي رسلنا الدين أمنوا كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين).

ثم لمزاحمة الأشغال وضيق الوقت، مع بعد منزل الشيخ لكونه شمال باب الناصر لم أتفرغ للقاء الشيخ موسى إلا مرتين أو ثلاثة، فلم آخذ عنه شيئا، (وكان أمر الله قدرا مقدورا)، وقد أخذت طرفا من إحدى رسائله في علم الأوفاق عن بعض أصحابه.

في طريق الرجوع

ذكر ارتحالنا من الإسكندرية نحو المغرب

كان ارتحالنا من الإسكندرية يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الثاني بعدما تزودنا واكترينا، وكانت رفقتنا مع ركب المراكشيين، وقد أحسنوا بنا، فجزاهم الله خيرا، ورحل ركب الجزائر قبلنا بيوم، وتخلف عنهم هناك فقيهم سيدي يحيى الشاوي، وكان معه أهله فاستهول المشي في البر، وشق عليه قطع مسافة برقة مع استقبال أيام الشتاء وشدة البرد، فاختار

ركوب البحر، وكان ذلك لأمر أراده الله به، فإنه دخل إلى الإسكندرية بعد ارتحال الركب ينتظر سفر البحرية، ثم بدا له في الرجوع إلى القاهرة في تلك السنة، فلما وصلها اعصوصب عليه جماعة من طلبة المغاربة بالأزهر للتدريس، فطار له صيت عند المغاربة إلى أن توصل لأرباب الدولة، فتولى قضاء المالكية وعزل عنه الشيخ عمر فكرون، زاعما أنه يُجوز في الحكم ويداهن بأخذ الرشا، وترقت به الحال إلى أن تولى إقامة الحاج المغربي، وحج بالركب مرتين، وانتشرت القالة فيه، وكثر مادحوه، وأكثر منهم ذاموه، وكان من أذكياء الطلبة النجباء، له معرفة حسنة بعلم النحو ومشاركة في غيره، مواظب على التعلم والتعليم، إلى أن الرئاسة إذا سكنت قلب إنسان لا تقصر به عن ذهاب رأسه، نسال الله العافية أمين.

عن رحلة : ماء الموائد "الرحلة العياشية إلى الديار النورانية"

عبد الرحمان الغنامي (وصل إلى مكة يوم 3 يوليوز 1729م)

الفقيه عبد الرحمان بن أبي القاسم الشاوي المزمزي الغنامي ، أحد فقهاء الشاوية في القرن الثامن عشر وقد رحل إلى الحج بعد سنتين على وفاة المولى إسماعيل ودخول المغرب في صراع على السلطة بين أبنائه ، مما خلق حالة من الفوضى . وصل الفقيه الشاوي إلى مكة يوم الأحد ثالث يوليوز 1729.أما دخوله إلى مصر فصادف يوم 8 صفر 1142 ه الموافق 2 شتنبر 1729.

في طرق العودة من الحج

وبقينا هناك ساعة زمانية تستريح الناس والبهائم وبعدها ركبت الناس ولازلنا نمشي تلك الليلة إلى وقت الضحى، دخلنا مصر على غاية من السرور يوم الأحد ثامن صفر ستة اثنين وأربعين ومائة وألف. دخل الركب المغربي والمصري مختلطان دفقة واحدة ،فكان يوما عظيما ومشهدا جليلا خرج أهل مصر بكبيرهم وصغيرهم ينعقون الركب، ودخلنا حامدين الله شاكرين بما آتانا الله من فضله لا أشكر إلا الله .ونزلنا بوكالة بموضع يسمى بالبدفنين ونزلنا فيها حوائجنا وما يشغلنا وقد أقمنا بها اثنين وعشرين يوما لازلنا نزور بها من آل النبي صلى الله عليه وسلم من السادات الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ومن التابعين والعلماء والأولياء. بهذه البلدة المذكورة تقبل الله ذلك منا بفضله وكرمه وبوده أنه قريب مجيب فلما حان وقت صلاة الظهر قدمت إلى جامع الأزهر فوجدنا بها مجالس العلم كثيرة، منهم من يقرأ التفسير ومنهم من يقرأ الحديث جلهم يقرأون كتاب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ومنهم من يقرأ النحو .الكثير منهم حنفية وفيهم المالكية ثم الشافعية وأما الحنابلة فهم نادر هناك ومذهبهم ضعيف . وبالأزهر الناس قليل، ورأيت هناك علماء يقرؤون مختصر سيدي خليل... كتاب الإمام الخرشي رضي الله عنهم.

ذكر أخي في الله الفقيه العلامة الدراكة الفهامة مدرس جامع الأزهر سيدي أعمر الطحلاوي رضي الله عنه ونفعنا ببركاته أن العماري مشتغل بالتضيف بلغ فيه إلى قوله تبارك وتعالى "ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون". قال لي هذا السيد الجليل إن كمل هذا التفسير فهو عنده أحسن من البيضاوي وبلغ في مختصر سيدي خليل باب الصلح وكثير ما مدح وأثنى عليه بأن يكمل عليه بجاه النبي وآله.

وحضرت مجلس الشيخ سالم النفراوي فوجدته يقرأ مختصر شيخ خليل بلغ فيه إلى باب العتق وهو رجل ضرير وله صوت جهير يجلس بوسط المجلس تدور عليه الحلقة، والله عددت أربع سواري داخلين بوسط المجلس من كبره وهو الآن

شيخ الجماعة بمصر عند المالكية وإليه ترجع الفتوى بجامع الأزهر ورأيت هناك فقيها يقرأ في مذهب أبي حنيفة يُقرِئهم بالعربية ويفسر لهم بالتركية فوقفت عند سارية بقرب المجلس فقال لي الفقيه: ما حاجتك ؟ فقلت له مالي حاجة . فضحك وقال: ويخلق ما لا تعلمون. ورأيت مجلسا كبيرا فتقدمت إليه فوجدت الشيخ يقرأ التسهيل ووجدت هناك امرأة جالسة تقرأ فسألت عنها فقيل إنها تحفظ التسهيل ومختصر سيدي خليل من الكتب وهي ملثمة وحين تفرغ من القراءة تقدم إلى دارها تُقرئ النساء النحو والفقه والتوحيد وغير ذلك من العلوم. و طوال مدة إقامتنا بهذه البلدة نجدها بالمجلس وكان يخبر عن غيرها من النساء إخواننا في الله الفقيه العلامة الدراكة الفهامة سيدي أعمر الطحلاوي رضي الله عنه، قال لي هنا ثلاثة نساء يحفظن متن سيدي خليل وجل كتاب ابن الحاجب.

وقد زرنا والحمد لله ما يتيسر من آل النبي صلى الله عليه وسلم ومن السادات الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ومن التابعين والعلماء والأولياء يقبل الله ذلك منا بفضله وكرمه... فمن آل النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا زين العابدين رضي الله عنه وسيدتنا نفيسة الطاهرة رضي الله عنها وسيدتنا رقية رضي الله عنها وسيدتنا أم كلثوم رضي الله عنها وسيدتنا زينب رضي الله عنها، ومن السادات الصحابة رضي الله عنهم أجمعين سيدنا عمر بن العاص رضي الله عنه وسيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه والسيدة فاطمة بنت جعفر الصادق رضي الله عنه، ومن التابعين الإمام صفي الدين رضي الله عنه ومن العلماء العاملين إمام المذهب سيدي محمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه ومعه جماعة من أئمة الشافعية رضي الله عنهم. ثم زرنا قبر القطب الرباني العارف بالله العمداني العرب والعجم ومدينة مصر سيدي قاتباي رحمه الله ورضي الله عنه وله كرامات عديدة ومآثر حميدة.

كرامة: ومن كراماته رضي الله عنه أن رجلين من اليهود وردا من الشام إلى المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مختفين ولبس كل واحد منهم جبة خضراء، وسكنا قرب المدينة واشتغلا يحفران تحت الأرض يريدان أن يصلا خفية إلى الروضة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فلما أن عزما على مرادهما وقف النبي صلى الله عليه وسلم يوما على سيدي قاتباي وأخبره باليهوديين ووصفهما له وما هما عليه فلما طلع النهار نادى بالمدينة من أراد أن يجاهد في سبيل الله ويزور النبي صلى الله عليه وسلم فليقدم إلينا نعطه رزقا فأتت الناس إليه أفواجا حتى لم يبقى أحد بالمدينة المشرفة فلم يجد الهيئة التي وصفها له النبي صلى الله عليه وسلم... وأرسل من ينادي بالأسواق وغيرها حتى قيل له ما بقي إلا رجلان عابدان زاهدان في الدنيا جالسان في خلوة واحدة بعيدان... فقال لهم ايتوني بهما فلما بلغا إليه عرفهما على الصفة التي وصفها له النبي صلى الله عليه وسلم فحرقهما وقتلهما أشد قتلة. لعن الله الطائفة اليهودية. وهو الذي صنع الشبيك في النحاس على

الروضة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

السفر في البحر



انتهى ما زرنا من الصحابة والتابعين والعلماء والأولياء والصالحين تقبل الله ذلك من بفضله وجوده وكرمه إنه سميع مجيب [...]..

ثم بعد إتمام الزيارات وإتمام منازل الخيرات كنتُ أجلس كثيرا جل الأوقات بجامع الأزهر رجاء الخيرات والبركات والأقبال بجاه النبي عليه الصلاة والسلام بقريب من مجلس الإمام العالم العلامة الدراكة الفهامة شيخ المالكة بجامع الأزهر رجاء البركات والخيرات بجاه النبي عليه الصلاة والسلام بقريب من مجلس الإمام العالم العلامة الدراكة الفهامة شيخ المالكية الشيخ سالم النفراوي رحمه الله ورضي عنه وكثيرا ما كان يسألني عن شيخنا الفقيه العلامة الدراكة الفهامة أبي عبد الله سيدي محمد بن زكري وكان يقول لي ما الفن الذي يعرف وله فيه الباع العظيم، فكنت أقول: العلم الذي يتوجه إليه بالتدريس يكون فيه آية من آيات الله لا يجاري ولا يبارى، فيقول سبحان الله فقهاء المغرب لهم الحفظ التام والفهم الكثير كذلك وردوا علينا فقهاء من ناحية المغرب مثل سيدي محمد الصغير وغيره وكثيرا ما كان يسألني عن مرض شيخنا سيد محمد بن زكري وكان يدعو لي بخير تقبل الله منه بفضله وكرمه.

وحين أردت السفر في البحر، قدِمتُ إليه وتكلمت معه في أمره ، قال لي : استخر الله تبارك وتعالى ، ففعلت ما أمرني به. فبعد ذلك بثلاثة أيام قدمت إليه وقلت له : يا سيدي نركب البحر، فأجابني وقال لي: نقدم معك إن شاء الله ، ولا تجلس ولو ساعة واحدة ، السفر في البر أضرني كثيرا ولا أطاقه جسمي ، فأقدم إلى الإسكندرية إن شاء الله ، وعيّن المركب الذي أسافر فيه وأعلمني بذلك ، وها أنا نوافي كتابك ، وكثيرا ما كنت أتحدث معه في أمور البحر، ويستشهد بهذه الآية الكريمة وهو قوله تبارك وتعالى: " هو الذي يسيركم في البر والبحر" . وبقيت معه جالسا من صلاة العصر

إلى غروب الشفق . وخرجت من عنده إلى منزلي، وقال لي: أقدِمْ إلينا عند صلاة الصبح، فحين وردت إليه في الوقت المذكور ، قال لي : إن الرجل الذي كان معنا ذكر ذلك لإخواننا أهل فاس، وأتوا لنا ومنعوني من ركوب البحر وأنت أقدِمْ في السلامة والعافية تنل خيرا إن شاء الله ، وإن وصلت إلى سلا فأقرأ مني السلام على أخينا في الله الفقيه العلامة سيدي بن عاشر الحافي وسيدي محمد سلام ، وقل لهما الدعاء لنا بصالح دعواتهما ، ونحن كذلك إن شاء الله. وكثيرا ما حضني على قراءة حزب البحر صباحا ومساء ، وقال لي أنت وديعة الله ورسوله ، وقبضني من يدي وقرأ عليها ما شاء الله ودعا بما لنا. أرجو الله بلوغه وآماله. وحين فارقت يدي يده ، قبلتُ يده ثلاث مرات ، قال لي : إنك من الآمنين، أنت في حفظ الله ورسوله وأمانه ، واقرأ على رأسك حين ركوبك في البحر ثمان مرات هذه الكلمات وهي : " هذه حسبي الله من كل شيء، الله يقلب كل شيء ولا يعقب لأمر الله شيء ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " ، فإنها حفظ وأمان من كل شيء ، وبه أستعين والله على ما نقول وكيل.

وكان خروجنا من مصر يوم الثلاثاء بعد صلاة الظهر، وصبيحة غد تصابحنا مع مدينة طنطا، وهي بلاد ولي الله سيدي أحمد البدوي رحمة الله ورضي عنه ، ونفعنا ببركاته آمين. فطلبت رئيس النقيرة أن يروح بنا إلى زيارة هذا الشيخ المبارك ، فأبى وامتنع وقاولته بثمن نعطيه له ، فأهبطني في الفلوكة ، وقدمت إليه ، فما إن قربت من المدينة تحرك ريح من ناحية الغرب وكثر. وردّنا الرئيس للمركب وزرناه من ثم ،ودعونا الله تعالى وتوسلنا له بجاهه عنده في بلوغ المراد وبقينا مسافرين إلى صبيحة يوم الخميس دخلنا مدينة رشيد ، وهي مدينة جيدة مبنية على طرف بحر النيل رخيصة السعر، تأتيها المراكب من كل ناحية من الأطراف، ومن الإسكندرية موسوقة بالقمح والشعير والعدس واللوبيا والحمص والشنتيل والكرفس والاملوخيا والأرز وبلح التمر وقصب السكر والتين والزبيب وغيرها من أنواع الفواكه ، وكذلك القطن والكتان وغير ذلك من أنواع الثياب أهلها يحبون الغريب خصوصا أهل الغرب بالنسبة إلى غيرهم من أهل البلدان ، ورأيتُ بها مساجد على طرف بحر النيل ما رأيت أحسن منها في بلد المشرق ، ورأيت بها فقيها يقرأ ثلاثة ، الأول عند صلاة الصبح في فقه الإمام مالك والثاني عند صلاة الظهر يدرس بلسان الترك ، وبعد صلاة المغرب يُقرئُ أهل الهند وهو أصله من المغرب من ناحية سوس ، وأقام بفاس مدة من عشرة أعوام وحج وجاور بالحرم الشريف و مرّ إلى مدينة إسلامبول بلاد السلطان الهمام وناصر دين الإسلام السلطان أحمد بن السلطان محمد خان ، فبقي مدة من اثني عشر سنة ومر إلى الهند فبقي بها نحو إحدى عشر سنة ، وكان يعرف جل الألسن رضي الله عنه ونفعنا ببركاته ، وقد أقمنا بهذه البلدة نحو اثنين وأربعين يوما ، وزرنا من هو هناك من السادات الصحابة رضي الله عنهم ، ومن التابعين والعلماء والأولياء والصالحين [. . .].

الدخول إلى الاسكندرية

هذا ما زرنا في الوقت من الصحابة والعلماء والأولياء والصالحين بمدينة رشيد تقبل الله ذلك منا بفضله وكرمه وجوده إنه قريب مجيب وبقيت بها المدة المذكورة ولازلنا بخير ونعمة شاملة وسافرنا منها في الثاني عشر من ربيع الثاني من السنة المذكورة بعد أن ركبنا بحر النيل في نقيرة للرئيس محمد الصعيدي ، وقدمنا فيها إلى الإسكندرية إلى أن انتهى بحر النيل واختلط مع البحر المحيط المالح ،وصارت النقيرة تدور كدوران الدولب ، فارتهبت الناس خوفا من البحر إلى أن سلمنا الله تبارك وتعالى منه بكرمه وفضله ، وبلغنا لمرصة الإسكندرية عشية النهار ، ونزلنا باسقالة المرصة ، وأتوا لنا اليهود يفتشون حوائجنا وما عندنا يريدون أن يقبضوا ثمنا معلوما يسموه بالمكترى ، فمنحت اليهود من ذلك ، وأتى لنا واحد من الترك يقال له صنب صاحب المخزن ، فأخذ حوائجي ومكنهم من اليهود وأدخلهم بمخزن معد للسلع فبقوا عنده ثلاثة أيام فأخبرني بعض الناس أن نَقدمَ إلى مفتي الإسكندرية ونعلمه بما جرئ بأمري ، فإن فيه الخير ويحب الغرباء ، قدمت إليه فأخبرته بحالي وبما نابني مع اليهود ، فأشفق من حالي وضعفي وقال لي لا تنجو من هذا الظالم إلا إذا قلنا له هذا رجل فقيه حكيم وأنه إن لم تعط له حوائجه حتى يقع به أمر سماوي .فقال لهم اليهود أعطوا حوائجه ولا تقبضوا منه شيئا ، فاستخرجهم منه بحيلة جزاه الله عنا خيرا ، وبقينا عنده ما شاء الله وكان يدرسنا وعرفنا بعلماء البلاد وبشريفها و مشروفها ، لازلنا معه في نعمة شاملة وطعامه لم ينقطع عنا مدة إقامتنا بهذه البلدة فجزا الله عنا سيادته خيرا ، وقد أقمنا بهذه البلدة المذكورة نحو خمسة وستين يوما ، لازلنا نزور بها من الأنبياء والصحابة والعلماء والأولياء تقبل الله ذلك منا بفضله وكرمه وجوده إنه قريب مجيب وبه أستعين . [...]

الاسكندرية القديمة

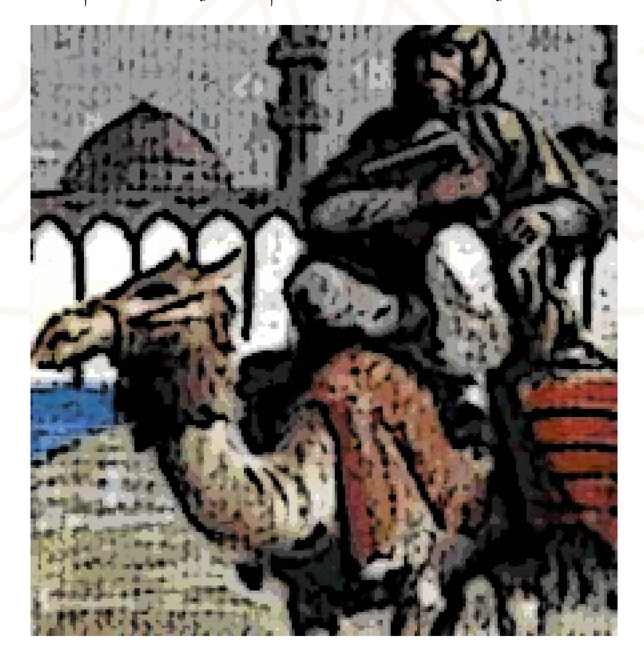
ولما دخلنا إلى الإسكندرية القديمة وجدنا بها مسجدا يقال والله أعلم أنه أسس بناءه سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه وصلينا به الجمعة ، وحين فرغنا من الصلاة قام جل الناس ودخلوا المقصورة هناك ، ودخلت معهم لا أدري ما هناك فوجدت مصحفا ملقى على كرسي محشوا في شلة من كمخة خضراء مكتوب بالكوفي يقال والله أعلم أنه مصحف سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه . وذكر لي بعض الفقهاء إنه أحد المصاحف الستة التي تركها سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه . ثم خرجنا من المسجد المذكور وزرنا في أثناء الطريق قبر الولي الصالح القطب الغوث الناصح ذو المراتب السنية والآثار الزكية أبا عبد الله سيدي محمد بن عبد الله رضي الله عنه . وبقينا هناك المدة المذكورة حامدين الله شاكرين بما آتانا الله

من فضله لا أشكر إلا الله قد نجد مركبا نقدم فيه إن شاء الله للمغرب حتى اكترى أهل جربة مركبا من نصراني فرانصيص يرفع السلعة لمدينة جربة والسفاقس وسوسة وتونس والجزائر وتطوان، واكتريت منهم وبقينا هناك نرجو المركب يوسق ، وقد كنا نازلين عند الفقيه النبيه النزيه الخير أبا عمران سيدي موسى الرحباني وكان رضي الله عنه ، يأوي إلينا ويجلس معنا ويؤنسنا ويعرفنا بعلماء البلاد وبشريفها ومشروفها مدة من خمسة وأربعين يوما ، فجزى الله سيادته خيرا. بعد أن وردت مراكب كثيرة من مدينة اسلامبول بلد إمام الهمام وناصر دين الإسلام مولانا السلطان أحمد بن مولانا السلطان محمد خان أدام الله عزه وأطال حياته للإسلام بجاه النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن أخبرونا بحقيقته وما هو عليه وسبب مكاتبته بينه وبين الإمام الهمام وناصر دين الإسلام الشريف الحسن الهاشمي القرشي مولانا السلطان ونيرأدام الله عزه وأطال حياته بعدله ومن على المؤمنين بجوده سيرته يصوم النهار ويقوم الليل مشتغل بقراءة العلم ، شافعي المذهب يتكلم بالفارسي يعظم العلماء ويحكم بالعدل ولا يخاف في الله لومة لائم ، ليس له شغل سوى الجهاد في أجناس الكفارالمبازه ، سركس ، والكوج و المسك وغير ذلك من أجناس الكفار النصارى وكان بعث وزيره في السنة السالفة للإمام الهمام وناصر دين الإسلام مولانا السلطان أحمد بن مولانا محمد خان مع كتابه يلومه على صلحه مع النصارى وتراخيه على الجهاد وإبقاء شوكة الكفرة مع أن أسلافه لم يكونوا على هذه الحالة ، فحين سمع خبره الوزير تلقاه بنحو أربعة أميال من المدينة وأخذ منه كتاب السلطان ، وصرفه من غير ملاقاته مع السلطان ، وفي هذه المباركة بعث صهره مع كتابه بعد أن حذره ونذره كثيرا جزاه الله عن الإسلام خيرا.

ولما كان يوم السادس والعشرين من شهر الله جمادى الأولى من عام اثنين وأربعين ومائة وألف، ورد لمدينة الإسكندرية القطب الرباني العارف بالله الفيضاني الشيخ أبو عبد الله سيدي محمد الصواف رحمه الله ورضي عنه ونفعنا ببركاته أمين . وذكر له بعض فقهاء الإسكندرية ثلاثة وستون حجة ، وقد ظهرت له كرامات كثيرة ومآثر حميدة . ولما سمعت خبره قدمت إليه بقصد الزيارة وجدته مع جماعة من أعيان البلاد فلما رآني بديهة قال لي: اركب إنك من الآمنين . فقلت له يا سيدي نخاف منه، وهذا فصل الشتاء ، فقال لي : لا تخف دركا ولا تخش ، فأطعمني ثمرا وحليبا و قال لي : اركب الآن ، فقلت له يا سيدي غدا إن شاء الله ، فقال لي ثانيا اركب الآن ولا تجلس ولو ساعة واحدة فامتثلت أمره ، وركبت في الحين بعد صلاة العصر في الثامن والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة. وغدا وقت الضحى خرجت السفينة من المرصة ،يوم العاشر دجنبر الأصم وحمدنا الله تبارك وتعالى وسافرنا إلى ناحية المغرب ، فلما كان يوم التاسع من سفرنا وقت صلاة الظهر تحرك ريح من ناحية الغرب وهاج البحر وكثر الريح وكانت السفينة تميل يمينا وشمالا ، وما



إن غربت الشمس ووجبت صلاة المغرب غلقت الأرياح من كل ناحية واشتد الحال وهاج الظلام واشتغلت السفينة تدور كدوران الرحى ودهشت الناس وبقينا على هذه الحالة إلى نصف الليل زاد البحر على ما كان عليه وكثر الريح حتى كان البحر يكسر في السفينة مع كبر جرمها بعد أن أخذ النصارى زاد الحجاج ورموه بالبحر وحوائجهم وشيئا من السلعة والناس يودعون بعضهم بعضا بعد أن قطعت الناس إياسهم من الدنيا ودهشت النصارى بعد أن رفعوا أيديهم على الخدمة في السفينة وانقطعت بهم الحيل، والناس يدعون الله تبارك وتعالى ، فمن الناس من يقرأ القرآن ومنهم من هو مشتغل بالأحزاب والأوراد ، ومنهم من كان يقرأ القصيدة المسماة بالبردة ، ومنهم من كان يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولازلنا في شدة وكرب إلى أن ألهمنا الله تبارك وتعالى إلى هذه الصلاة الكاملة ،الفاضلة بفضله وتوفيقه ، ولقد رأينا لها فضلا كثيرا، فقرأناها نحو اثني عشر رجلا وقسمناها مائتين لكل واحد. فما أن كمل العدد حتى سكن الريح وخمد البحر كأنه لم يكن من بركة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي هذه اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال والآفات وتقضي لنا بها جميع الحاجات وتطهرنا بها من جميع الذنوب والسيئات وترفعنا بها أعلى الدرجات وتبلغنا بها أقصى الغايات من جميع الخيرات في الحياة وبعد الممات .



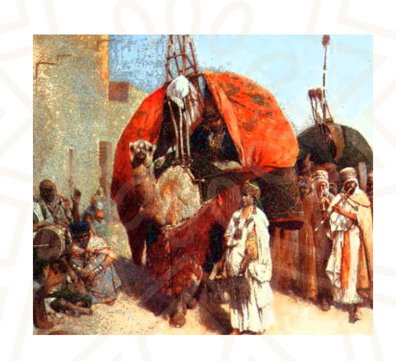
من رحلة : "رحلة القاصدين ورغبة الزائرين "

مخطوط بالخزانة الملكية تحت رقم 5656 في 24 صفحة

أبو عبد الله الحضيكي

(1706م - 1775م)

أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي السّوسي " تضلع في العلوم وارتحل إلى الشرق فحج وزار أواسط المائة الثانية عشرة بعد الألف فكتب رحلته ، وأخذ من علماء الحرمين واليمن والهند والعجم والشام وأقام بمصر سنين للأخذ من فطاحلها " كما يقول عنه صاحب المعسول . و ترد إشارة في بعض الصفحات من رحلته أنه كان موجودا بمصر سنة 1740م .



مشقة الطريق

ثم نزلنا بعد الغد ريف مصر، ليلة خروج المحمل، وخروجه كل عام على الدوام، في السابع والعشرين من شوال و الله أعلم. وقد قطع الركب بَرّقة في نيف وخمسينا يوما في شدة البرد ،وكثرة السرى والسهر في الليل، ورب ليال لا ينزل الركب فيها إلا قدر ما يتعشى، وكانت الرجالة المشاة ، الذين لا يركبون، أشد الناس مقاساة للشدة و المشقة فيها، والله يجازي الكل بما عمل ، فلما أشرف الناس على مصر وهي وراء النيل إلى جهة الحجاز، ورأوا النيل، ونظروا إلى خُضرة الأجنة والبساتين، تهللت وجوههم بالسرور، ونسوا ما قاسوه وكابدوه من المشقة والسهور، وأزهرت ذوات الصدور، لما دنت إلى مواضع النبوءة والنور، وذهب منها كل ما أكنته من الأضغان والأحقاد، وتجلت شموسها فلا كدر ولا أنكاد، وبرئت الأجساد من الأوجاع و الأسقام، لما بلغت مواطن الاستراحة والاستقامة، »ادخلوا مصر إنْ شاء الله آمنين«فلله الحمد، وكنا به مومنين، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم.

فبتنا ليلتنا تلك في قرية من قرى الريف يقال لها المنصورية، فرحين في رغد عيش، وهناء مع أهل البلد، فلما انصرم الليل صلينا وغلسنا الرحل، وبادرنا ركوب النيل، فجاءنا رجل من قبيلة هلالة ، سكن هناك بأولاده مع العرب بالريف ، فاستودعنا، فأودعتُ عنده بغلتي وجَمَلي ، فقطعنا النيل، ونزلنا مدينة بلاق، فلما استقر بنا المنزل، جعل الناس يلمون شعثهم وزينتهم، حتى إذا اطمأنَّ بهم المكان شرعوا يتزودون لسفر الدرب والحجاز، وهبت نسيم الحرمين ، فاهتوت الأعالي والأعجاز، واستنشقتها القلوب ، فلم يتمالكوا أن برزوا للانتياب والإنتداب، وقال قائل: هذا مناد ينادي بالرحيل في الاقتراب ، واستبق الناس الأبواب ، وسارعوا لمرضاة رب الأرباب، واختلسنا يومئذ الزيارة من مشايخ الأزهر، فيا له من زهرة الدين ونضرته وقدره. وما نسينا حظ التعلم فيه والجوار، إذا شفيت الصدور بالسلام على سيد الأبرار والأخيار، منبع الأسرار

والأنوار، صلى الله عليه وعلى آله مادام الليل و النهار[...].

ثم منه ونزلنا بئر الصعاليك، ثم ونزلنا النخيل بندرا بأرض التيه، ثم منه ونزلنا مكانا يسمى وادي التيه، ثم منه ونزلنا قرب عجرود، ثم صبحنا عجرود، وبه ملاقي الناس ومعهم الفواكه، والأطعمة، والخيرات، وأول منهل لقينا فيه ملاقي أهل مصر بندر الوجه، ونزلنا يومنا ذلك دار الحمراء.

ثم منها وصلينا الظهر بالبركة، وبتنا فيها فرحين مرحين، فلما انفلق الصبح غلسنا الرحل، ودخلنا مصر صحوة، وقد قطعنا الدرب سالمين والحمد لله، وبقي الناس يتنعمون بمصر إلى أن عزموا على الرحيل، وخرجوا من المدينة، وضربوا أخبيتهم على شاطئ النيل، تحت النبابة قرية كبيرة ، مقابل بلاق إلى جهة الشمال، وهنا مات صاحبنا الحاج محمد اللكوسي، والشيخ عبد الواحد الصنهاجي، رحمنا الله و إياهم و المسلمين جميعا.

ثم ودعناهم، من ثم وبقيت أنا وثلاثة من طلاب سوسنا الأقصى، مجاورين على جامع الأزهر على نية القراءة، والأخذ عن أشياخه، والتبرك بآثارهم، والإقتداء بسيرتهم الحسنة، فكل واحد منا يلازم من يرضاه من المشايخ، واستخرت الله تعالى، بعدما جالست كلا منهم، وحضرت مجلسه ودرسه أن يختار لي ويهديني ويرشدني إلى من يفتح الله لي على يده وينفعني بعلمه، فوفقني إلى ملازمة:



- الشيخ أحمد الإسكندري، أحد أعلام المالكية.

- والشيخ أحمد العماوي الدمرداشي، أحد أركان الأزهر من أجِلاء المالكية.

- والشيخ أحمد الطحلاوي، من المالكية أيضا.

أما الأول وهو الإسكندري، فحضرنا عنده مختصر الخليل ورسالة ابن أبي زيد ،وأحاديث ابن أبي جمرة المقتطعة من صحيح البخاري، والجامع الصغير للإمام السيوطي، غيرأن هذين الأخيرين لم نختمهما عليه، وكانت

سيرته رضي الله عنه، أن يختم الرسالة، والمختصر، والعشماوية، والعزية، وألفيةابن مالك، والتلخيص، وأصول ابن السبكي في تسعة أشهر كل عام، وكتاب من كتب الحديث إما الجامع الصغير، وإما أحاديث ابن أبي جمرة، وإما غير ذلك في كل عام.

وكان رضي الله عنه، وأطال بقاءه، عالما عاملا، تقيا، ورعا زاهدا، نذر على نفسه منذ ثلاثين سنة، تدريس العلم بجامع الأزهر، وداره وعياله بالإسكندرية، لايمكث بها عندهم إلا ثلاثة أشهر فأقل، من كل سنة[...].

قرب الساعة

ثم إننا كذلك ملازمون للجامع، والجوار فيه سنة كاملة، ومن عادة أهل مصر أن خرجوا لزيارة أهل قرافتين: الكبرى والصغرى، صبيحة كل جمعة، رجالا ونساءً، صغارا و كبارا، ترى الطرقات كالسيول، تموج بالناس، وذوات الخذور لا يحتجبن في ذلك اليوم ، كيف وقد اشتملت تربة قرافة مصر على ما لا يحصيه عدا إلا الله تعالى، من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم، وع لماء الدين وأئمة الإسلام، وأولياء الله تعالى، وعباده المخلصين سلفا وخلفا.

ولا تزال طائفة من أهل العلم والدين في مصر كما نُصَّ على ذلك إلى قرب الساعة. وقد شاهدنا ذلك عيانا سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف، وقد »ضَعُف الطالب والمطلوب« للعلم يومئذ في المغرب، فلا ترى من يعتني به اعتناءً، وأما جامع الأزهر هذا، فمشحون اليوم بالعلماء، وأهل الحق والدين ، ومازالوا قائمين بوظائف التدريس العلم، والتحقيق، ويقصد هذا الجامع للعلم من اليمن، والحرمين الشريفين، والعراقين، والشام، والمغرب، ليس في الدنيا بجميعها مثله علما، على ما شاع وذاع عند الكافة والخاصة.

وناهيك بذلك جامع، يشتمل على نحو من ثلاثين مجلسا في وقت واحد، كلها في الفقه، وفي المشايخ أولئك من له خمسة دروس بين الليل و النهار، ولكن لا عجب في ذلك، وهم في أقرب مكان من المغرب إلى ينبوع الحكم والعلوم، وعباب الأسرار والأنوار والفهوم، صلى الله عليه وعلى آله، ما دامت الأقتاب على السنام، وفي محل سَلف فيه السلف الصالح، والخلف الفالح، والنسل الناجح، كالإمام الأعظم صاحب رسول الله صل الله عليه وسلم، سيدنا عمرو بن العاص، الذي هو أعقل العرب، وفاتح إقليم مصر، وإمامنا الأفخم سيدنا عقبة، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي تفوح تربة القرافة وجبلها بنفحة طيبة منه.

عن رحلته : "الرحلة الحجازية"

وركبنا في السفينة، ولبثنا فيها أيضا تسعة أيام وخرجنا إلى موضع يقال له "القصير" ولم نبت به، بل حين أتيناه اكترينا دوابا لموضع يقال له "أثن" على شاطئ بحر النيل وأتيناه على أربعة أيام، ولبثنا اثنى عشر يوما، وركبنا في سفينة تريد مصر، ولبثنا دونها تسعة أيام، وبتنا بمصر ليلة واحدة وركبنا في بابور البر وجئنا الإسكندرية في ذلك اليوم، وبينهما مسيرة سبعة أيام للجمال، فلما أتيناها أصابنا بها الجدري؛ وتعرض لنا بعد ذلك زمن الشتاء فتعطل السفر في البحر، وتأخرنا إلى أن لبثنا فيها خمسة أشهر وبعض السادس.

القطار والتلغراف بمصر

فائدة في غرائب تفيد الاعتبار منها ما رأيته وقومي بالأبصار ومنها ما حدثني به من أثق به في الإخبار، ومنها أربع غرائب أحدَثهن محمد سعيد بن محمد علي باشا الخديوي سعيد رحمة الله في قرننا هذا الذي هو القرن الثالث عشر، في مصر رأيتهن كلا بعيني رأسي:

الأولى منهن : بابور يسير في البر فيما بين مصر والإسكندرية غربا، وفيما بين مصر والسويس شرقا. ومن سرعته أنه يقطع مسيرة اليوم في الساعة، وذلك أن مصر والإسكندرية بينهما مسير سبعة أيام، كما تقدم؛ وهو يقطع ذلك في سبع ساعات؛ ومصر والسويس بينهما مسير يومين، وهو يقطعه في ساعتين.

الشيخ ماء العينين
(1831 - 1910)

ولد بالجنوب المغربي سنة 1831 فارتبط اسمه بالتصوف والمقاومة ضد دخول الفرنسيين للمغرب وضد التواجد الإسباني ؛ كما اشتهر بمؤلفاته والتي تعد بالمئات، تم حرق الكثير منها في الهجوم الذي شنته القوات الفرنسية والإسبانية على بيته بالسمارة. وقد تعددت مجالات اهتماماته في التصوف والفلسفة والرياضيات وعلم الفلك . . .

غادر الشيخ ماء العينين مدينة طنجة بحرا مرورا بمصر نحو البقاع المقدسة يوم الأربعاء 19 ماي 1858 . وقد وصل الإسكندرية في منتصف أكتوبر 1858، وفيها لبث أزيد من خمسة أشهر بعدما منع ركبهم انتشار الجدري وهطول الأمطار . عاد إلى الساقية الحمراء يوم الإثنين 27 ماي 1861 وبقي قائدا مجاهدا ومؤلفا إلى أن توفي يوم 29 أكتوبر 1910 بمدينة تيزنيت .

وقد ركبنا الذي بين مصر والإسكندرية : ركبناه من مصر ضحى كبيرا ونزلنا بالإسكندرية في أول عصرنا في ذلك النهار. ويحمل من الناس والتجارات ما لا يوصف كثرة. ويكفي في ذلك أنه يحمل باشا مصر وأرطاته، وذلك أن باشا مصر لابد له من أربع أرطات، كل أرطاة ثمانمائة رجل، مُرْد لا يكون فيهم إلا ابن رئيس. وهذا العدد لا يفارق الباشا في نوم ولا في يقظة، ولا يحضرون في غزو ولا في غيره، لأنهم هم حراس الملك عندهم. والعدد كله الذي هو أربع وثلاثون مائة رجل، أي ثلاثة آلاف وأربعمائة رجل، سلاحها وفرشها يحملها ذلك البابور مع خَدَمَته الذين يخدمونه، أي يشتغلون فيه. وأغرب من هذا كله أن طريقه التي يسير عليها ليست إلا طريق واحدة مصنوعة له ومفروشة كلها بصفائح الحديد من الإسكندرية إلى مصر ومن مصر إلى السويس.

الغريبة الثانية : وهي أغرب من الأولى : سلك مصنوع من خلط معادن، رأسه بمصر ورأسه بالإسكندرية، وآخر رأسه بمصر أيضا ورأسه بالسويس، وكلاهما في رأسه قلم يكتب، وعند كلا رأسيهما أيضا رجل جالس، فإذا طرأ خبر مثلا في مصر، وأحبوه أن يصل إلى الإسكندرية، يأخذ الرجل الذي هو جالس عند رأسه بمصر رأسه الذي عنده ويكتب به، فإذا تمت الكتابة عنده انكتبت في الإسكندرية، أي تكتب بالرأس الذي فيها عند الرجل الجالس عنده، وكذلك إذا طرأ خبر في الإسكندرية، يكتب الخبر به من إحدى الأمصار للأخرى، ويأتي من عند الآخر الجواب في ثلث ساعة أو أقل.

وكان سبب صنعهم لهذا السلك أنهم لما صنعوا البابور المتقدم ذكره، قالوا : سيكون لكم علة، وذلك أن كل من أحب أن يجني جناية أو يسرق سرقة فإنه يفعلها ويركب قبل أن يعلم بخبره ويصل إلى المصر الآخر ويدخله من حيث شاء، ويبقى المجنى عليه أو المسروق له كأنه يريد صاحبه في مصره الذي هو فيه. فقاموا وصنعوا السلك.

وكان من قدر الله أنهم بعدما صنعوه بقليل، قام رجل يوما بضرب عبد له بمصر، فقام العبد وترك سيده حتى نام أو غفل وأخذ له كثيرا من المال وجاء إلى أهل البابور وأكراهم ليوصلوه إلى الإسكندرية ليذهب من الموضع الذي يتهمه به سيده. فكان من قدر الله أن سيده تيقظ بعد قليل أو تنبه، وسار إلى صاحب السلك وقال له: اكتب لأهل الإسكندرية أني هرب لي الآن عبد وصْفُه كذا وكذا، أخذَ لي من المال كذا وكذا لئلا يكون ركب في البابور إليها، وأنا سائر في مصر أريده لئلا يكون فيها. فكتب صاحب السلك بالخبر لأهل الإسكندرية ووصلهم الخبر في ثلث ساعة، والبابور لا يأتي إلا بعد سبع ساعات، كما تقدم. فلما جاء البابور إذا بالناس واقفون ينتظرون العبد وعندهم وصفه ووصف المال الذي عنده، فلما سألوهم قالوا لهم: ها هو معنا. فأخذوه وأخذوا المال من عنده وردوهما إلى ربّهما. وهذا من أغرب ما يكون – وسبحان الذي بيده

ما كان وما يكون.

الغريبة الثالثة : طريق حفرها أهل مصر عن إذن من ذلك الرجل رحمه الله فيما بين مصر والسويس، وساووها وملسوها، وإذا تعرض لهم شيء من الهضاب أو التلول مثلا فإنهم يعبلونه حتى يساووه مع غيره إلى أن صار الأعمى فيها والناظر مستويين. وهذا في مسيرة يومين.

الغريبة الرابعة : بحر جَذَبه من النيل حتى وصل به إلى الإسكندرية وبينهما، أي النيل والإسكندرية، مسيرة ثلاثة أيام، وصارت السفن تجري فيه. ومن أحسن ما فعل في حفره إياه، أنه لما قرب اجتماعه مع النيل، وقد كانت تعمل فيه ثلاثمائة ألف عامل وأكثرها مسلمون، وغير ذلك نصارى ويهود، قام وجعل يقلل أجرة المسلمين ويكثر أجرة النصارى واليهود ويقول لهما: أنتما أحسن شغلا من المسلمين، وإن المسلمين لا يشتغلون شغلا يفيد شيئا. حتى صار المسلمون يدعون عليه بأسوء الدعاء. وصاروا يخرجون واحدا واحدا عن شغلهم له. وصار اليهود والنصارى يتكاثرون تكاثرا لا يوصف، لكثرة ما يعطيهم من الأجرة وحسن ما يسمعهم من لفظه، حتى صار لا يعمل فيه إلا النصارى واليهود.

ثم لما وصل الحفر إلى الماء، انطلق الماء عليهم انطلاقا شديدا حتى مات من الجميع أكثر من مائة ألف، ولم يخرج الباقي إلا على أقبح حالة. فقال للمسلمين: هكذا أردت. فاعتبر المسلمون غاية الاعتبار وصاروا يدعون له بأحسن دعاء.

وهذه الغرائب كلها رأيتها بعين رأسي، غفر الله لي في يومي وغدي وأمسي.

ومنها : رحى وجدتها حين تمامها بالإسكندرية، وهي من أغرب ما صنع في البرية. وذلك أنها رحى تطحن وحدها، وتغربل وحدها، وتخبز وحدها وتنضج الخبز وحدها. وتحريكها ليس إلا بالريح. والناس ليس عليهم فيها إلا مسألتان :

وقد أكرمنا غاية، ورحب بنا نهاية ، وقال : « المحل محلكم ومحل أصحابكم إلى يوم القيامة »، وما قصر إكراما ولا لسانا ـ جزاه الله خيرا - .

وقد طلبتُ منه الإذن في هذه الطريقة ، فساعد عليها ، وكذلك الإجازة في العلوم ، فساعدَ عليها أيضا ، وكتبَ في ذلك كتابة نذكر نصها –إن شاء الله تعالى - [...].

إحداهما صب الزرع أولا فيها، والثانية تقطيع الخبز إذا تعجن الدقيق ورميه في الموضع الذي ينضج فيه منه لا غير. ومع ذلك، تطحن من الزرع في وقت واحد ما لا يوصف كثرة، وأحرى في يوم كامل.

ومنها: بابورات كثيرة بالإسكندرية أيضا، وفي مصر أكثر، تجذب الماء وحدها من النيل يسقى به الزرع، وبعضها يجذبه من البحر الكبير، أي بحر محيط، لبعض حوائجهم، وبعضهم يجذب الطين للبناء ولغيره من الحوائج لشط النيل، وبعضهم ينجز الخشب الكثيرة، وليس على الشخص في الخشبة إذا جيء بها إلا تحريكها من جانب لجانب حتى يكمل نجرها.

عن رحلته : « الرحلة الحجازية »

الحسن الغسال الطنجي

(1866 - 1939)

الحسن بن محمد الغسال الطنجي ، كاتب ومؤرخ ورحالة ولد سنة 1866 ، وتوفي بمراكش سنة 1939. خلف مؤلفات عديدة منها رحلته الحجازية « الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية » . خرج من طنجة على متن باخرة انجليزية يوم 26 أبريل 1898، وسيصل إلى الإسكندرية في الخامس من ماي بعد الشروق . أما عودته فكانت بعد خمسة أشهر في أكتوبر1898.

الوصول للإسكندرية

ولما قربنا للإسكندرية عظم علينا البحر واشتد هيجانه فتداركَنا المولى جلَّ جلاله بالألطاف الخافية والحمد لله .

وبصبيحة يوم السبت بعد الشروق وصلنا للإسكندرية التي هي من أمهات المراسي المذكورة ، وهي واقعة على البحر الأبيض وترى فيها من البابورات وغيرها ما يشبه الغابات المحتبكة.

ومن المزارات التي زرناها بها مقام نبي الله دانيال عليه السلام وهو في سرداب لدرج أرضي كذلك والله أعلم. ثم زرنا مقام الإمام البوصيري، ومقام الشيخ أبا العباس المرسي بجواره، وغيرهم من مقام السادات الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين – ونفعنا ببركاتهم آمين.

وفي هذه البلدة عدة جوامع عظام وأشهرها جامع الإمام البوصيري، وفيها حصون حصينة وقشلات عسكرية وقصر الخديو المضي على نحو المرسى ومنظره من جهة البحر جميل فائق، وبعد المحل المذكور المعروف بالمحمودية يخرج الناس إليه في العشية من المسلمين وغيرهم، وتكون هناك الموسيقى تصدح بالنغمات المشرقية، وحولها الأشجار العظيمة والأنوار الغريبة وفي وسطها فصحات رخامية، ظريفة الشكل محمولة على صور سبع من الرخام، وماء النيل يتدفق منها بقدرة كبيرة، وأغلب طرق البلد واسع مبلط بالحجارة نظير النوع الأورباوي وبها خانات كبيرة، وأسواق عامرة، ومخازن لبيع البضايع والتحف الغريبة، وبها عدة حمامات جميلة الشكل والصنعة على أكمل المراد من النظافة، ومن عجايبها عمود السواري التي [حارت] الأفكار في صنعته، وهو عمود واحد من الرخام مرتفع في الهواء نحو الثلاثين أمتارا وفوه تاج من الحجر المربع المنقوش. وبالجملة فهو من مآثر هذه المدينة العجيبة، وناهيك بمفاخره بل بفخامته ملك تيلها الإسكندر، وقد كانت إقامتنا بهذه البلدة عدة أيام بعدها، فخرجت بعفشي كله لسويس تخفيفا من الأثقال.

الاتجاه للقاهـرة

وفي الساعة الرابعة عشية يوم السبت، ارتحلنا من الإسكندرية صحبة بابور البر سويس، وسار بنا سيرا وسطا، ولم يقف إلا ببعض القرى، وكان منظر الطريق في غاية الحسن والبهجة من أصناف النبات والزراعات، ولم يطل بنا المنظر الجميل حتى أرخى الظلام سرواله، فوصلنا لمصر القاهرة ليلا عند الساعة الثامنة فتلقاني في موقف البابور الوجيه الفاضل قاسم بيك نجل وكيل المغاربة بمصر المحروسة، السيد الحاج محمد العلوا الفاسي، ورحب بنا أتم الترحيب وأركَبَنا في عربيته المخصوصة به وتوجهنا معه إلى دار سكنى أبيه، ولها أكرم نزلنا حتى سافرنا ومن ثمة، وما قصر معنا في الترحيب والإكرام والبرور التام فجزاه الله على إحسانه خيرا... من فاعلها القطر المصري، ويمر وادي النيل بمحاذاتها وعليه آلة بخارية لرفع الماء، وتصفيته، وتفرقته على جميع الديار والسقايات وغير ذلك، وعلى حدود نهاية البلدة جبل شاهق عليه قلعة عظيمة على شكل هندسي، وبها مستقر الأمرا، وهي ذات حصون متينة محفوظة بالمدفع الجديدة، وتلك منها سائر المدينة، وبهاته القلعة جامع كبير، وقبة شاهقة، وجُل ذلك من مُنشآت باشا محمد علي المغربي – رحمه الله رحمة واسعة .

وبها مشاهد عظام من أهل بيت النوبة الكرام ومقامات الصالحين والأعلام كالإمام الشافعي، وذلك خارج القرافة، إلى [غير] ذلك من المشاهد والمزارات التي يعجز القلم عن إحصائها لكثرتها. ومن أعظم المشاهد هناك جامع سيدنا الحسين، وهو مشهد عظيم، مقام مهاب فخيم، وبها عدة جوامع ضخمة محكمة البناء كجامع المؤيد والعتيق يسمى عندهم جامع ابن العاص، ومن أعظم الجوامع المشهورة في الدنيا الأزهر التي يدرس فيها فنون العلوم من الأصول والفروع على طرق المذاهب الأربعة ومحاط الجامع بالأروقة أي بيوت كالمدرسة يقيم بها جماعات من الطلبة المجاورين لأخذ العلم. وبها هاته المدينة أسواق كثيرة، وحوانيت عامتها في سائر الجهات لبيع السلع والبضايع المجلوبة لها من سائر الأقطار المعمورة، وأغلب طرقها في عرض واسع على نحو المنوال الأورباوي، وبعض الطرق لا تمر بها العربيات لضيقها لكونها لا زالت على العمل القديم.

ومن محاسن القاهرة حديقة الأزبكية الجميلة المنظر، المحوطة بأصناف الأشجار، وأنواع الأنوار، وخاصات رخامية تفور بمياه النيل. ومن سمات ما يذكر في القاهرة الأهرام التي بقيتُ بها ، غير أنه لا يتيسر لنا الوصول إليها حتى أزعجني السفر، لأني كنت عازما على تقديم الزيارة فحقق الله رجاءنا والحمد له، وبالجملة فإن صفة مدينة مصر لا يقدر وصاف على عد أوصافها ولو كان مقامه بها.

الطريق إلى السويس

وفي عشية يوم الأربعاء ارتحلنا منها على طريق سكة الحديد بعدما أقمت بها عدة أيام، ولما مررنا على الإسماعيلية بتنا بقية الليل ؛وعند الفجر قمنا منها في صبيحة يوم الخميس قبل الشروق وصلنا السويس فكان جملة السير من القاهرة إليها ثمان ساعات ،وعند البابور تلقانا الفاضل عبد الفتاح نائب وكيل المغاربة . من ثمة، وكان نزولنا عنده بداره، وأهم ما هناك مرساها الصناعية، وبقربها الخليج الجامع بين البحرين الأبيض والأحمر وحول المرسى حجر الكرنتيلة، وفي وسط هذه البلدة التجار ورياضات حول ديار بعض الأجانب ويتخللها ماء النيل، وقد منَّ الله علينا بزيارة ضريح الولي الصالح الصديقي سيدي غريب الدفين داخل البلد تقبل الله ونفعنا ببركاته آمين.

ركوب الباخرة من السويس

وبعد قضاء ما دعت الحاجة إليه من شونة السفر، ركبنا الباخرة المصرية المسماة بالمحلة الرحمانية. وعند الزوال من يومنا هذا أقلعنا منها، وكان بها مسلحا ولا يركب أحد من الحوض إلا بعد أخذ إذن مرسوم على ورقة جوازه، ويؤتي على ذلك.

وبعدما صعدتُ إليها أخذتُ بيتا في القمرة، وكان في الباخرة ازدحام فادح من الرجال والنساء والصبيان بحيث لا يجد الإنسان فيها محلا فسيحا حتى تدافعنا على الركوب هناك، ولكني تسليت لما رأيتُ من انشراح جميع الركاب وعدم اكتراسهن بما فهم فيه من المشقة والحرج، كما تسليت أيضا وانشرح صدري أيضا بمرافقة بعض طلبة العلم من الديار الشامية، فكنتُ أرَوِّحُ النفس معهم بالمفاكهة مع المحافظة التامة على إقامة الصلوات الخمس في أوقاتها جماعة بآذان وإقامة، وغالب الأوقات كلها معمورة بالأذكار والتلاوة الحسنة وإنشاد الذكر في خير البرية [صلى الله عليه وسلم] غير أني رأيتُ كثيرا من الحجاج لم يُصَل ولا يستطيع الصلاة، سيما عند اضطراب البحر وهيجانه.

الوصول إلى ينبع

وعند الغروب من يوم السبت ، وصلنا إلى مرسى ينبوع، وهو أقرب المراسي إلى المدينة المنورة بحيث تصلها القوافل في ثلاثة أيام، غير أن هواءها ليس بالجيد، وكذلك ماؤها بأنه أجاج، وسبب ذلك وقوع انحراف لنا في المزاج حتى بلغ المرض منه الجهد.

عن رحلته : « الرحلة الطنجوية المزوجة بالمناسك المالكية »

أبو عبد الله الكتاني
(1858=1927)

ولد الشيخ أبو عبد الله محمد بن جعفر الكتاني الحسني بمدينة فاس سنة 1858م، تربى وترعرع وسط جو علمي وديني مما أهله ليكون عالما خلف أزيد من ثمانين مؤلفا في مختلف مجالات المعرفة، رحل إلى الحجاز من مدينة طنجة على مركب إنجليزي يوم 28 نونبر 1903 ووصل إلى الإسكندرية يوم ثامن دسمبر 1903، ومنها توجه على الحجاز ثم البلاد الشامية، بيروت ودمشق ومنها إلى بيت المقدس ومدينة الخليل .عاد الشيخ الكتاني إلى المغرب يوم الثلاثاء 14 يونيو 1904. أما وفاته فكانت سنة 1927.

دخول مدينة الإسكندرية

وكان وصولنا إلى الإسكندرية بكرة يوم الثلاثاء ثمان عشرالشهر ، وهو عندهم تاسع عشره ، لأنهم صاموا قبلنا بيوم ، وهو يوم الجمعة برؤية الهلال – على ما ذكروا – وقد ذكروا أيضا أن المسافة ما بين طنجة والإسكندرية بحرا بمشي السفن المشي المعتدل المتوسط منها مشيا ، ستة أيام بلياليها الثلاث إلى مالطة وكذلك [المسافة إلى] الإسكندرية بدون إقامة في محل ، فإن فعلوا الإقامة ، زادت المسافة بحسبها ، ووجدناهم يصلون أيضا على مشرق الشمس كما كنا نصلي في البحر ، وكذلك أهل مصر . مع الشيخ محمد سر الختم المِيرغني.

ونزلنا فيها بدار الشريف العالم البركة سيدي محمد سر الختم بن محمد عثمان الميرغني الحسيني ، وأصله – فيما قال لنا – أميرغني وهو في وقته شيخ الطريقة الميرغنية ، ويُقال لها أيضا : الختمة بالإسكندرية وهي طريقة جده المذكور ، وكان – أي الجد – يوصف بالختمية ، فلذلك يُقال له : الختم ، ولهم أتباع بناحية الخرطوم وغيره ، وأخ هناك هو شيخ هذه الطريقة بها .

بعض مزارات الإسكندرية

وممن زُرناه بالإسكندرية سيدي أبو العباس المرسي ، ومعه بإزائه ضريحا ولديه ، محمد وأحمد ، وزرنا أيضا بمسجده ضريحين ؛ أحدهما قيل لنا لسيدي عمر الفاكهاني ، ثم أضرحة أخَر ، أربعة نُسِبت لسيدي عثمان بن الحاجب ، وابن اللبان

وابن أبي شامة ، ثم زرنا سيدي البوصيري ، وسيدي ياقوت القرشي ، وكل منها بضريح مخصوص قريبا من أبي العباس ، وزُرنا أيضا سيدي أبا عبد الله الغوري ومعه بإزائه ضريح آخر نُسِبَ لسيدي محمد البنا ، وزرنا أيضا أبن المنيِّر أبا العباس ، وسيدي سند بن عنان ، وسيدي علي العقباوي ، والطرطوشي ، وبإزائه سيدي محمد الأسعد .

وزرنا أيضا سيدنا دنيال ، وبإزائه ضريح نسب للقمان الحكيم ، وقريب منه سيدي عبد الرزاق الوفائي ، ثم سيدي الصوري. . . وأولياء الإسكندرية كثيرون .

زيارة طنطا وقبرسيدي البدوي

ثم في صبيحة يوم الجمعة ركبنا في بابور الطنطا لزيارة سيدي أحمد البدوي فعملنا في الطريق ساعتين ، من السابعة إلى التاسعة ، فزرنا أولا تلميذه سيدي عبد العال ، ومعه أخواه فيما قيل : سيدي عبد الرحمان وسيدي نور ، وبينهما خزانة ذَكَرَلنا بعض العلماء هناك – وهو شيخ الإسلام الآتي – أنّ فيها شعرتين من شعره عليه السلام .

ثم زرناه ثانيا وصلينا بضريحه الجمعة ، وبعد الجمعة تلاقينا مع جماعة من العلماء هناك ، وقد ذكر لنا أن به نحوا من مائة مدرس أو أزيد ، وطلبة كثيرون ، ومعهم شيخ الإسلام عندهم ، ويُقال له : شيخ الجامع الأحمدي وهو الشيخ إبراهيم الظواهري ، فرحب بنا وبالغ ، وتذاكر في العلم ساعة ، ثم أكرمنا بواسطته المتولون للضريح المذكور بإخراج عمامة صاحبه ، وسبحته ، وهي العصبة ، ومشطان له ، صغير وكبير ، وزرواطة صغيرة ،وعصابة كان يجعلها بين عينيه ، فتبركنا بالجميع .

وخرج معنا لزيارة السيد البدوي أيضا ، وسيدي عبد العال ، وسيدي مجاهد هناك أيضا فزرناهم ، وقال لنا عند الخروج من السيد البدوي : « اقرأوا آية الكرسي عند خروجكم ، فإني تلقيتُ من شيخي الباجوري أن من قرأ آية الكرسي عند خروجه من موضع بِنيّة الرجوع إليه لا بد أن يرجع « ، فقرأناها وخرجنا وتوادعنا معه فدعا وبالغ جزاه الله خيرا، وانصرفنا لزيارة سيدي عز الرجال هناك فزرناه .

وبعد صلاة العصر من يومنا ،ركبنا البابور المصري ،فعمل بنا في الطريق إليها ساعتين ونصفا، وذكر لنا أن بعض البوابير وهو البابور الذي ركبناه أولا من الإسكندرية يعملُ من سيدي البدوي إليها ساعة ليس إلا ، فتصير المسافة ما بين الإسكندرية ومصر في هذا البابور ثلاث سوائع ، وهي برا على ما قيل مسيرة ستة أيام !.

دخول القاهرة وذكر بعض مزاراتها

فدخلنا لمصر عشاء ليلة السبت 3 وعشري الشهر عندهم ، فنزلنا بدار الحاج الطيب التازي ، وهو تاجر فاسي هناك من أهل المحبة ، تلقانا إلى الإسكندرية ، وكان نزولنا فيها عند من ذكرنا بواسطته .

فزرنا بها المشهد الحسيني أول دخولنا ، وصلينا به العشاء ، ثم زرنا بعده كثيرا من مشاهدها التي لا تكاد تنحصر كثرة ، كمشهد الشافعي ، وفي جواره شيخ الإسلام زكرياء ، والسادات البكريين : كسيدي محمد البكري ، وسيدي أحمد البكري ، وسيدي عبد الباقي البكري ، وسيدي تاج الدين البكري ... وغيرهم .

عن رحلة : " الرحلة السامية إلى الإسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية "

رحلة القول المستقصى عن الرحلة لبيت الله الحرام والمسجد الاقصى ، مخطوطة مؤلفها مجهول ، خرج من فاس نحو طنجة التي غادرها بالباخرة يوم الاربعاء 21 فبراير 1934 (سادس ذو القعدة 1352) ، وسيصل إلى مصر عبر ميناء بور سعيد يوم الخميس 1 مارس 1934 ، فيقضي ستة أيام تجول في أسواقها ومساجدها ومآثرها . وفي ما يلي مقطع دخوله وانطباعه الأول عن مدينة القاهرة .

ومن الغد ، وأعني به يوم الجمعة الموالي ليوم وصولنا ، استأجرنا سيارة نقلتنا للقاهرة . مررنا في طريقنا إليها على مدينة بليس ألبسها الله الجمال رونقه بهجة المنظر، وأيضا شبه قرية صغيرة تُعرفُ بأبي صوير وبجوارها محل الطيران الإنجليزي ، ثم أيضا على مدينة تسمى أبي عماد مكثفة بأشجار النخل ، يليها شمالا وادي النيل ، جارية به مراكب للصيد بمناسبة اضطرار الأهالي سكانها وفاقتهم ، وأيضا مدينة أخرى بعدما جزنا قنطرة الوادي المذكور ثم مدينة الإسماعيلية ، يلوح عليها رونق وبهاء وبها من النخيل ما لا يكاد يدخل تحت العد والإحصاء كثرة .

ومنها وصلنا للقاهرة مصر الأمصار ، ذاك البلد الفخيم ومركز الإعتبار في الحديث والقديم ، حللناه في الساعة الثانية عشر نهارا مُحاطين بالسرور والإبتهاج وانفراج الأزمة أي انفراج ، بلد يقصر القلم عن استيفاء وصفها ويكل اللسان ولو مد اشراكه عن استقصاء نعمها ، أسواقها زاهية زاهرة وشوارعها نظيفة نقية ومتاجرها نافقة رائجة ومساجدها تلوح عليها جلالة الملة الحنيفية السمحاء ، غنية بفقهاء ومُدرسين وخطباء على أنها يصدق عليها كل الصيد في جوف الفراء ، شأن الأمصار الكبيرة الجامعة بين الغث والسمين ، الوضيع والثمين ، هذا متخلق بالأخلاق العربية وهذا مشغوف بالمدينة الغربية والله في خلقه آيات . . .

القول المستقصى عن الرحلة لبيت الله الحرام والمسجد الأقصى

ولقد ظهرت لنا مصر ونحن في الجو ؛ مدينة عظيمة وهي الآن أعظم مدينة عربية إسلامية راقية ، فأغلبية أهلها عرب لغة ونسبا وثقافة ؛ ملكها عربي ، ودينها الإسلام الراقي الأخلاقي ، تملكت قلوبهم وألسنتهم العربية ، وحُب العلم والمعالي ، وملأ أكفهم الأصفر الرنّان ، لهم كريم الشيم والأخلاق ، حملوا راية العروبة والإسلام من لدن الصدر الأول من التاريخ العربي ، ما نزلوها إلى الآن .وحملوا العلم العربي الإسلامي على كافة الشعوب العربية في أفواه رجالهم ونقولهم ، وسطروه في تواليفهم التي فاض بها بحر العرفان إلى كل قطر وصقع ، فأغلب التواليف التي بها الدراسة الآن من صنع أقلامهم السيّالة ، يشاركهم الشام والعراق والحجاز والهند وغيرها في بعضها ؛ ولكن بحر مصر قد طمى بما هاج من أمواج تواليف مصر الآن ، فلا تجدُ الآن في أغلب مدارس العربية ومعاهدها ، إلا تواليفهم العصرية الجديدة الآن ، يدرس بها ويشفع العالم من معينها ، وما هو من تواليف غيرهم على كثرة البلاد الإسلامية واتساعها إلا طنين تواليفهم.

وصف مصر من الطائرة

لم يكن منظر مصر من الطائرة كمنظر فاس أو مراكش أو غيرها من المدن القديمة كتلة من البناء، متصلة يتكئ بعضها على بعض ، ومصر أيضا أقدم منها ، ولكن تظهر أبنيتها قصورا شامخة يفصل بعضها عن بعض ، طرق منظمة .

لمذا ظهرت لنا الديار المصرية رأينا مدينة راقية منتشرة فوق فجاج مستو من الرمل الأحمر ، ذات بنية شامخة في الجو ، لها طرق

محمد بن الحسن الحجوي
(1874 -1956)

محمد الحجوي أحد كبار العلماء والمثقفين المغاربة ،كتبَ في مجالات متعدد حتى تجاوزت مؤلفاته المائة .
سافر نحو الحج بالطائرة رفقة ولديه وعدد من أصدقائه من مطار سلا يوم الإثنين 20 أكتوبر 1946. وتوقفوا في الجزائر وتونس وليبيا ولم يصلوا إلى القاهرة إلا يوم الأحد 27 ، وغادرها في اليوم الموالي الإثنين 28 أكتوبر 1946 على متن الطائرة نحو مدينة جدة .



منتظمة متسعة ، تسبح فيها سيارات كثيرة كأنها النمل تغدو وتروح ، تتخللها ميادين متسعة وجنات فيحاء تزيدها بهجة وكمالا ، ويخترقها من بعض الجهات واديها العظيم ، أعني النيل الذي هو أشبه بعروق الحياة المتخللة لبدن الإنسان ، تلتف حوله الأشجار اليانعة ، والقصور المدرسية والإدارية والأميرية الشامخة المستجدة البنيان ، والمدينة على أرض مستوية فيحاء يطل عليها من ناحية جبل المقطم . [...]

منظر مصر من داخلها

قد بيّنا بعض البعض من منظرها الخارجي ، فأما منظرها الداخلي فيُمكن أن نلخصه في وجازة بأنها قد صيّرتها العائلة المالكة من لدن إسماعيل باشا باريز العروبة ، فإنك ترى فيها جُل ما هو موجود في عواصم أوربا كباريز ، ولندن ، وبرلين ، ورومة، وبروكسيل وغيرها ؛ من الأناقة والإتحاف في ظاهر الدور والإدارات والمعابد والمخازن من كل ما يسمى الآن بالرقي والتقدم الظاهري ، وتصنيف الأبنية وتنجيدة زخرفتها ، وإتحافها مما يُبهجُ الناظر ، ويشرخ الخاطر ، مع اتساع الشوارع وتنظيمها ، وكل ما يقرب المسافات من أطومبيلات وحافلات وما إلى ذلك مما قد اكتظت به شوارعها ؛ وكل من النوع الراقي الدال على مظاهر الغنى والرفاهية ، فلهي أبهج العواصم وأحفل المدن الراقية وأجملها، وشعبها أهدأ شعوب وأبعدها عن القساوة وفكرة الحرب والفتن ، وإنما هو شعب العلم ومكارم الأخلاق والمدنية ، وأميل للاكتساب والرفه ، والله يعينه ويوفقه . [...].

زيارات

إنني في اليوم الذي اصبحتُ فيه بالقاهرة يوم الأحد 2 حجة 1365 ه ، توجهتُ مُسرعا بأشواق عربية إسلامية لزيارة الأزهر الشريف ، فزرتُ أولا مشهد الإمام الحسين سِبط الرسول الأعظم عليه وعلى العائلة النبوية جميعا أزكى السلام ، ومنه توجهتُ للأزهر الشريف ، ومتّعتُ الطرف في كل تلك المعابد التي أسست على حُب الرسول ، وحُب الدين الحنيف الذي رفع منار العروبة على بطاح الأرض الأسيوية والإفريقية وكل بقاع المعمور ؛ وملئتُ في الأزهر أزور رحابه ومكتبته وكتبه النفيسة الخطية التي بها ارتقى الإسلام والعربية الفصيحة الحنونة . ومكثتُ بالأزهر إلى أن صليتُ المغرب ، ولقيتُ هناك عددا من الطلبة يرتشفون معين العلم بالدروس والمذاكرة .ومنهم البعض القليل من المغرب الأقصى والأوسط والادنى . وقد التفوا عليَّ يسألون عن بعض الأحوال ، وعن ما يعرض لهم من العلم والدين .

بكّرتُ لزيارة دار الكتب المصرية التي رأيتُ فيها ما يملأ العين منظراحسنا والفؤاد إعجابا ، والقلب ارتواءً، ولو لم يكن في مصر إلا الأزهر الشريف وهو المسجد الجامع بين العبادة ، والانهمار بحياض المعارف والعلم ، مع مكتبتها الغنية بالكتب العتيقة النفيسة ، وأعظم منها دار الكتب التي جمعت كل ما لذ وطاب ، وملأت بدفاتر العلم المعاهد ومعجزة المفاخر جامعة فؤاد التي أسست منذ نحو عشرين سنة فقط .

محمد بن الحسن الحجوي : "الرحلة الحجازية"

مراجع النصوص

✦ ابن جبير ، أبو الحسن : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار . بيروت ، دار صادر . لبنان ، د. ت.

✦ العبدري ، أبو عبد الله : رحلة العبدري . [تحقيق وتقديم محمد الفاسي] . الرباط جامعة محمد الخامس . سلسلة الرحلات 4 – حجازية 1. 1968.

✦ ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . [تحقيق وتقديم الشيخ عبد المنعم العريان] . لبنان . دار إحياء العلوم بيروت – ط2. 1992.

✦ البلوي ، أبو البقاء خالد : تاج المفرق في تحلية علماء المشرق . [تحقيق حسن السائح] فاس ، مطبعة محمد الخامس الثقافية، المغرب ، 1970.

✦ ابن خلدون ، عبد الرحمان : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . لبنان دار الكتاب اللبناني – المصري . بيروت 1979.

✦ القلصادي ، أبو الحسن علي : رحلة القلصادي (تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب) [دراسة وتحقيق : محمد ابو الأجفان] تونس ، الشركة التونسية للتوزيع . تونس 1978.

✦ العياشي ، أبو سالم : الرحلة العياشية . [حققها وقدم لها : سعيد الفاضلي وسليمان القرشي] ج1و2- أبو ظبي ، دار السويدي للنشر . ط1- 2006.

✦ الشاوي الغنامي ، عبد الرحمان : رحلة القاصدين ورغبة الزائرين . مخطوطة فريدة بالمكتبة الحسنية بالرباط رقم 5656.

✦ الحُضَيكي، أبو عبد الله :الرحلة الحجازية . [ضبط وتعليق عبد العالي لمدبر] .الرباط . الرابطة المحمدية للعلماء- مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث – سلسلة كتب التراجم والفهارس والبرامج والرحلات 3- ط1. 2011.

✦ ماء العينين ، الشيخ : الرحلة الحجازية . [تحقيق ماء العينين مربيه ربه] .الرباط ، مطبعة المعارف . ط1- 2010. ذ

✦ الغسال ، الحسن بن محمد : الرحلة الطنجية المزوجة بالمناسك المالكية . [تحقيق محمد علي فهيم بيومي] القاهرة، زهراء الشرق . ط1- 2009.

✦ الكتاني ، أبو عبد الله: الرحلة السامية إلى الإسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية . [تخريج محمد بن حمزة الكتاني] لبنان ، دار ابن حزم ، بيروت . ط1- 2005.

✦ مجهول [مؤلف] : القول المستقصى عن الرحلة لبيت الله و المسجد الأقصى (مخطوط) 17 ورقة ، 23س- 170/ 210 مم بمؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود / الدار البيضاء . رقم التصفيف 11.

✦ الحجوي ، محمد بن الحسن : رحلة حجازية. [تحقيق عبد المجيد خيالي] الدار البيضاء. مركز التراث الثقافي المغربي.

ط1 - 2010

